ترجمات عالمية | Mathilda | Mary Shelley | من أبرز الروايات الرومانسية

ماري شيلي

ماثيلدا

رواية

ترجمة: عماد منصور

المحروسة

t.me/qurssan

عنوان الكتاب: ماتيلـــدا Mathilda
المؤلفة: ماري شيلي Mary Shelley
ترجمة: عماد منصور
مراجعة لغوية: محمد حمدي أبو السعود

مركز المحروسة
للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٠٠٨٤/ ٢٠٢٠
الترقيم الدولي: 978-977-313-806-6

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2020

t.me/qurssan

رواية

ماتيلـــدا

ماري شيلي

ترجمة

عماد منصور

الطبعة الأولى 2020

t.me/qurssan

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

شيلي، ماري

ماتيلدا: رواية/ ماري شيلي؛ ترجمة: عماد منصور.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2020

116ص؛ 14.5×21.5سم.

تدمك 978-977-313-806-6

1 - القصص الإنجليزية

أ- منصور، عماد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع ٢٠٢٠/١٠٠٨٤

t.me/qurssan

مقدمة المترجم

ماتيلدا هي الرواية الأهم لماري شيلي بعد فرانكنشتاين. يشترك كلا النصين في العديد من السمات: كلاهما يتناول هجران الأب، كلاهما يمثّل إضافة إلى الأسلوب القوطي عبر مواضيع السفاح، والجنون، والميل للانتحار، والعزلة، واختلاق المسوخ. وكلتا الروايتين مكتوبة على شكل رسائل. لكن ماتيلدا تختلف ربما في حكاية نشرها العجيبة والمعقدة، والمئة والأربعين عامًا التي تفصل بين كتابتها ونشرها.

بدأتْ شيلي كتابة هذه الرواية القصيرة في أغسطس 1819 تحت عنوان أصلي حقول الخيال، ثم أنهت مسودة أولى بعد ما يزيد على شهر بقليل من بداية كتابة الرواية. جاءت هذه الشهور في أثناء فترة عصيبة جدًّا من حياتها، فخلال العام نفسه عانت شيلي من موت اثنين من أطفالها. في تدوينة اليوميات نفسها التي تشير فيها إلى البدء في ماتيلدا، كتبت شيلي: "إذا انمحت كل الأحداث التي وقعت في السنوات الخمسة قد أكون سعيدة". لاحقًا، ذكرت شيلي أن كتابتها

t.me/qurssan

كانت لها آثار علاجية عليها. بعد موت بيرسي بيش شيلي، زوج ماري شيلي، كتبت قائلةً: "قبل أن أكتب ماتيلدا، غارقةً في اليأس، كان الإلهام كافيًا لقمع أي بؤس مؤقتًا - لكن الآن لا أجد أي راحة". كانت ماتيلدا بمثابة إلهام شافٍ- وهو شيء، في أعقاب وفاة زوجها، لم تعد قادرة على إيجاده.

أول من قرأ الكتاب كان على الأرجح صديقة شيلي، ماريا جيسبورن. في يومياتها، تصف جيسبورن ماتيلدا بأنها "مثيرة للاهتمام على نحو استثنائي" و"صادقة بلا أي حيل خادعة". كان بإمكان جيسبورن الوصول إلى النص لأنها، في عام 1820، في أثناء رحلتها من ليفورنو إلى إنجلترا، منحت المخطوطة لوالد ماري شيلي، ويليام جودوين، لنشرها بناء على طلب شيلي. هنا، تصبح قصة ماتيلدا أكثر تعقيدًا ومأساويةً. فرغم إعجابه ببعض الجوانب في القصة، أبدى ويليام جودوين لجيسبورن امتعاضه الشديد من الرواية ككل، وسجلت جيسبورن ردود أفعاله هذه في يومياتها. فقد وجد أن مواضيع الرواية حول السفاح والانتحار "كريهة ومثيرة للامتعاض" واعتقد أن القرّاء "سيتعذّبون من لحظة إلى أخرى بسبب خوفهم من سقوط البطلة بين لحظة وأخرى". كان جودوين متحذلقًا بإفراط أيضًا بشأن العناصر الصغيرة للقصة، مثل ما إذا كان يفترض أن ماتيلدا قادرة أم لا على طلب عربة سريعًا بعد تلقي رسالة انتحار أبيها. في النهاية، رفض نشر الرواية.

على نحو مثير للحزن، لم تر ماتيلدا النور ثانيةً في حياة شيلي التي جاهدتْ بيأس بلا كلل لاسترجاع المخطوطة من جودوين (ليس من الواضح إن كان لغرض لنشرها تحت ظروف أخرى أو لتعديلها). في يناير 1822، عندما كانت جيسبورن في زيارة لإنجلترا ثانيةً، طالبتها شيلي عبر خطاب باسترداد مخطوطة ماتيلدا. في البداية أجابتها جيسبورن بقولها، لأن جودوين كان قد أوقف الاتصالات معها، إنها تعتقد أن استرداد المخطوطة مستحيل. واصلت شيلي مطالبة جيسبورن مرارًا

t.me/qurssan

وتكرارًا على مدى الشهور اللاحقة، وأجابتها جيسبورن "يرى المطّلعون أنني لن أحصل ثانيةً أبدًا على مخطوطة ماتيلدا". استمرت شيلي في التواصل مع جيسبورن حول المسألة عبر شهر يونيو 1822. بعد موت بيرسي في يوليو من العام نفسه، بدت كأنها فقدت الاهتمام بالأمر برمّته، ربما بسبب اكتئابها و/أو حاجتها إلى نشر مادة جديدة لإعاشة نفسها وابنها الصغير.

لم تُسترجع ماتيلدا أبدًا في أثناء حياة جودوين أو شيلي أو جيسبورن. ولا يعرف الباحثون سوى القليل عن النص، باستثناء عبر إشارات شيلي وجيسبورن في خطاباتهما. انتهى الأمر بالمخطوطة، مع الكثير من أوراق شيلي وخطاباتها ويومياتها، في مجموعة ماري شيلي لدى اللورد أبينجر (قريب من بعيد لشيلي)، والتي توجد حاليًا في مكتبة بودليان في أكسفورد. ثم قامت إليزابيث نيتشي، باحثة من القرن العشرين في الشعر البريطاني والرومانسية، باستخراج المخطوطة من الأوراق ونشرتها في دورية دراسات في الفلسفة. كأستاذ في اللغة الإنجليزية في كلية جوشر في أوائل القرن العشرين بالتحديد (وهو أمر نادر لامرأة في ذلك الوقت)، عملت نيتشي على نشر النص لما يقرب من عقد، وأشارت إليه أول ما أشارت في السيرة الذاتية التي كتبتها عن شيلي في عام 1953.

أولت نيتشي أهمية كبيرة لأصداء السيرة الذاتية المحتملة في النص. في مقدمتها لإصدار دراسات في الفلسفة كتبت:

"في هذه القصة، كما في جميع كتابات ماري شيلي، هناك الكثير مما يعتبر سيرة ذاتية، يصعب أن نجد كتابًا أكثر كشفًا عن الذات من هذه الرواية".

تتابع نيتشي وتحاول البرهنة على أن الشخصيات الأربع المحورية في الرواية تمثّل شيلي وأشخاصًا آخرين في حياتها. يمثّل أبو ماتيلدا ذو

t.me/qurssan

السلوك المنحرف بديلاً عن ويليام جودوين، في حين أن رفيقها الشاعر رقيق الإحساس، والعاجز عن مساعدتها رغم ذلك، يمثّل زوجها بيرسي ظاهريًّا. تستدعي شخصية ماتيلدا المأساوية شيلي ويأسها شديد التطرف في ذلك الوقت، في حين تمثل أم ماتيلدا، ديانا، التي تموت عند ولادتها، ماري وولستونكرافت ،أم ماري شيلي. يستمر هذا التفسير السيَري في التأثير على قراءة ماتيلدا عبر القرن العشرين وما تلاه. على سبيل المثال، لدينا إصدار 1992 من جانيت تود الذي يربط ماتيلدا بروايتي ماري وولستونكرافت، ماري: قصة خيالية و ماريا، أو المرأة المضطهدة في كتاب واحد، ما يوحي برابطة قوية بين الروايات الثلاث.

وفي مقال مهمّ عن ماتيلدا في كتاب ماري شيلي وزمانها (2000) تقول باميلا كليميت:

لا يراودني أي شك في أن جزءًا مما يجعل مايتلدا وظروفها الاستثنائية بهذه الجاذبية والسحر، هو الومضات المحتملة التي تقدمها الراوية عن أسرة وولستونكرافت-شيلي-جودوين المتداعية. بمعنى أنني أرى أن الرواية يجب أن تعاد قراءتها وأن يُحتفى بها لأكثر من هذه الأسباب، خاصة في عشية المئوية الثانية لكتابتها. تقدم ماتيلدا وصفًا صادقًا على نحو جذري لظروف المرأة، وتُظهر للقارئ ألم الغياب بعد وفاة الأم، وتصوّر الصعوبات تجاه العواطف غير المرغوبة من الرجال، وحالة امرأة تعيش في عزلة كاملة للهروب من تأثيرات السلطة الأبوية. وكذلك، كالعديد من مؤلفات المرأة قبل القرن العشرين، تعرضت للقمع. بحسب خطابتها، نعرف أن شيلي أرادت لماتيلدا أن تُنشر وتُقرأ على الرغم من ردود أفعال جودوين لمادتها الأكثر إثارة للجدل. لهذا السبب، أعتقد أنه من الأهمية بمكان الاستمرار في قراءة وبحث هذه الراوية القصيرة، خشيةَ أن تصبح مجرد نص نسوي مقموع آخر.

t.me/qurssan

الفصل الأول

فلورنسا، 9 نوفمبر 1819:

الساعة لم تتجاوز الرابعة، الفصل شتاء والشمس قد غربت بالفعل، السماء الصقيعية صافية بلا سحب تعكس أشعتها المائلة، لكن الهواء نفسه كانت به لمسة من اللون الوردي ينعكس على الأرض التي يغطيها الجليد. أقطن في كوخ وحيد على سهل شاسع ومنعزل، لا صوت يصلني من الحياة الخارجية. أرى الأرض المقفرة المنبسطة المغطاة ببقع بيضاء، باستثناء بعض النقاط السوداء متناثرة هنا وهناك صنعتها شمس الظهيرة على قمم التلال ذات الرؤوس المدببة، ينزلق عنها الجليد ولا يبقى منه سوى طبقة رقيقة مقارنةً بالثلوج الكثيفة المتراكمة على الأرض المنبسطة: بضعة طيور تنقر في الجليد القاسي الذي يغطي البرك -الصقيع مستمر منذ فترة طويلة.

أعاني من حالة عقلية غريبة. أنا بمفردي - وحيدة تمامًا - في العالم - بعد أن مضى قطار المآسي من فوقي وتركني ذابلةً، أعرف

t.me/qurssan

أنني على وشك الموت ولكنني سعيدة - مبتهجة - أستشعر نبضي، وأجده سريعًا: أضع يدي النحيلة على خدّي، وأجده يحترق: أشعر بروح سريعة خافتة في داخلي، روح تطلق الآن آخر شراراتها. وكأنني لن أرى أبدًا ثلوج شتاء آخر - أعتقد أنني لن أستشعر مرة أخرى أبدًا الدفء الباعث على الحياة لشمس صيفٍ آخر، وفي وسط هذا الاقتناع أبدأ في كتابة قصة مأساتي. ربما من الأفضل لقصتي هذه أن تموت معي، ولكن شعورًا بعجزي عن اتخاذ أي قرار إيجابي، مع ضعفٍ شديد في جسدي وعقلي، جعلني مستسلمة لأقل اندفاعة في نفسي. ورغم أن الحياة كانت قوية في داخلي، آمنت حقًّا برعب مقدس يملأ حكاياتي ويجعلها عصيّة على التعبير بأي طريقة، والآن وأنا على وشك الموت أبدأ في تلويث رعبها الغامض المقدس. إنها غابة راجيات الخير (اليومنيديات Eumenides)[1] التي لا يستطيع سوى المحتضرين دخولها، وأوديب في طريقه للموت.

لماذا أكتب؟ - عليّ أن أستجمع أفكاري. لا أعرف إن كان أي شخص غيرك سيتمعّن في هذه الصفحات، أنت يا صديقي الذي سيتلقاها عند موتي. لن أوجهها إليك وحدك، لأن السعادة في تأمل صداقتنا ستكون غير ذات معنى إن كنتَ الوحيد الذي يقرأ ما كتبته. سأحكي قصتي إذًا كما لو كنت أكتب لغرباء. كنتَ قد سألتني عن سبب حياة العزلة التي أحياها، عن دموعي، وفوق كل هذا عن صمتي المنيع القاسي. في الحياة لم أجرؤ على إجابتك، في الموت سأكشف عن هذا الغموض. لن يفعل الآخرون سوى تقليب هذه الصفحات باستهانة: ولكن بالنسبة إليك، يا وودفيل، صديقي الودود العطوف، ستكونَ موضع تقدير - هذه المذكرات لفتاة مكسورة القلب تشعر، رغم احتضارها، بدفء العرفان تجاهك، بدفء دموعك التي ستسقط

(1) الجزء الثالث من ملحمة الأوريستيا الشعرية لإسخيلوس، وهو يتناول شعور أوريستيس بالذنب ووقوفه أمام ربّات الانتقام - المترجم

t.me/qurssan

على الكلمات التي تسجّل مأساتي، أعرف أنها ستتساقط - وما دامت الحياة في داخلي، سأظلّ أشكرك على تعاطفك.

ولكن يكفي هذا. سأبدأ في سرد حكايتي: إنها مهمتي الأخيرة في الحياة، وأملي أن أجد القوة لإنجازها. لن أحكي عن جرائم، فأخطائي يمكن الصفح عنها بسهولة، فهي لم تنبع من دافع شرير ولكن من سوء تقدير. وأعتقد أن البعض قد يرى، عبر سلوك مختلف وحكمة أعلى، أن بإمكانه تجنب المآسي التي وقعتُ ضحيةً لها. كان قدري خاضعًا لضرورة، لضرورة بشعة. أي أن الأمر كان يتطلب يدين أقوى من يديّ، أقوى في رأيي من أي قوة بشرية حتى تتمكن من تمزيق الأغلال السميكة الصلبة التي أسرتني، أنا من كنتُ لا أتنفس سوى البهجة، مستغرقةً في دفء الحب وسعادة الخير، حتى انتهى الأمر إلى مأساة، والآن توشك المأساة أن تنتهي بالموت. أتناسى نفسي مرة أخرى، وحكايتي لم تُحكَ بعد. سأتوقف لبرهة، أمسح فيها عينيّ المعتمتين بالدموع، وأحاول جاهدةً أن أتخلص من الشعور الغامض والثقيل الذي يراودني بالتعاسة، حتى أتمكّن من استرجاع مشاعر الماضي الأكثر حدةً.

ولدتُ في إنجلترا. كان والدي رجلاً ذا رتبة: فقدَ والده مبكرًا، وتلقى تعليمه على يد أم ضعيفة بكل التدليل والتساهل الذي رأته واجبًا لرجل نبيل ذي ثروة. ثم أُرسل إلى إيتون ومنها إلى الجامعة، وتمتع منذ طفولته بالحرية الكاملة لإنفاق مبالغ كبيرة من المال، جعلته يتمتع منذ بداية شبابه بالاستقلال الذي يكتسبه طفل بهذه المزايا في المدارس العامة.

وجدت انفعالاته تربةً خصبة في هذه الظروف، ضربت فيها بجذورها وازدهرت كأزهار أو أعشاب في أرضها الطبيعية. ونتيجة حريته بالتصرف دائمًا على سجيته أصبحت شخصيته مميزة على نحو

t.me/qurssan

قوي ومبكر، وأظهرت جوانب متعددة يمكن للمراقب العابر أن يلمح فيها بذور الفضيلة والخطايا على السواء. كان إسرافه اللامبالي، الذي جعله يبدد مبالغ مهولة من المال إرضاءً لنزواته العابرة التي كان يراها ممتلئة بالطاقة والشغف، يظهر أحيانًا ككرم غير محدود. مع ذلك، رغم انشغاله المتحمس باحتياجات الآخرين، لم يتجاهل إرضاء رغباته الشخصية إلى أقصى حد. كان يمنح المال، ولكن ذلك لم يكن يعني التضحية بأيّ من أمنياته الشخصية، كان يبذل الوقت، بلا اعتبار لقيمته، ويقدّم العطف الذي كان يسعده كثيرًا تحقيقه بأي طريقة.

لا أعني بذلك أنه إذا وضعت رغباته الخاصة في منافسة مع رغبات الآخرين أنه سيظهر أنانية مفرطة، ولكن هذه المنافسة لم توضع موضع اختبار قطّ. ترعرع على الرفاهية وتمتع بكل مزاياها، أحبّه الجميع ورغب في إرضائه. وكان همه الأكبر تحقيق متع رفقائه - ولكن متعهم كانت متعه نفسها، وإذا كان قد أغدق اهتمامًا بمشاعر الآخرين أكبر من المعتاد بين صبيان المدارس، فإن هذا لأن مزاجه الاجتماعي لم يكن ليجد المتعة لو لم يكن الجميع خالي الهموم مثلما كان.

في أثناء وجوده في المدرسة، فإن المحاكاة وقدراته الطبيعية جعلته يحتل مرتبةً بارزة في المظهر بين أقرانه، وفي الجامعة أبدى تجاهلاً تجاه الكتب، فقد كان يؤمن أن دروسًا أخرى عليه أن يتعلمها إلى جانب تلك الموجودة في الكتب. كان حينها على وشك الدخول إلى معمعة الحياة ولكنه كان صغيرًا بما يكفي للنظر إلى الدراسة في العموم كتفاهة تقيّد من حريته، مهتمًا فقط بعدم أذية نفسه أو الغير، ولكن بلا أي رابط حقيقي مع الحياة -التي كان ينظر إلى متعها مثل ركوب الخيل والصيد باهتمام أكبر بكثير- لذلك سرعان ما انخرط في حماقات الجامعة، بقلبه المهيأ بالكامل للتلوّث بها - قلبه الخفيف

t.me/qurssan

ربما ولكن ليس البارد أبدًا. كان صديقًا مخلصًا وعطوفًا - ولكنه لم يصادف أي شخص أعلى منه أو يساويه يستطيع مساعدته في كشف اللجام عن خبايا عقله، أو جعله يسعى لمناطق متجددة من الفكر بعد استهلاك المناطق القديمة. انغمس في شعور التفوق على الآخرين بسرعة إصدار الأحكام: وجعلته مواهبه ورتبته وثروته رئيس جماعته، وفي تلك الوضعية بقي ليس فقط سعيدًا بل غارقًا في المجد الذي اعتبره الطموح الوحيد الذي يستحق أن يكون الهدف الوحيد لحياته.

عبر تضييق غريب لأفكاره كان ينظر إلى العالم كله فقط على اعتباره مرتبطًا أو غير مرتبط بمجتمعه الصغير. وبالنسبة إليه كانت الآراء جميعها التي تنفجر من دائرة مقربيه مجرد مسائل شاذة وبالية، وأصبح في الوقت نفسه دوجمائيًا وخائفًا مع ذلك من عدم التماهي مع المشاعر الوحيدة التي يعتبرها أصيلة. كان في أعين الناس عمومًا غير مبالٍ باللوم والتقريع، وذا ازدراء كبير يدفعه إلى تجاهل الأحكام المسبقة تمامًا، وفي الوقت نفسه الذي كان يخطو فيه خطوة الانتصار على بقية العالم، كان يبدي الجبن، بانحطاط يختفي في نفسه، أمام جماعته، فرغم أنه رئيسها لم يجرؤ قطّ على إبداء رأي أو شعور حتى يتيقن تمامًا بأنه يفي باستحسان رفقائه.

مع ذلك، كان يحمل سرًا يخفيه عن أعز أصدقائه، سرًا حمله معه منذ سنوات عمره الأولى، ورغم حبه لزملائه لم يكن يثق بإفشائه إلى أي منهم رغم أي تعاطف أو رقة منهم ناحيته. كان عاشقًا. ويخشى أن تكون حرارة مشاعره موضع سخريتهم، أن يعجز عن تحمل استهزائهم بها واعتبارها تافهة وعابرة، وهي التي كان يعتبرها حياة حياته.

بالقرب من قصر عائلة أبي، كان يعيش نبيل ذو ثروة متواضعة، لديه ثلاث بنات جميلات. أكبرهن كانت الأكثر جمالاً، ولكن جمالها لم يكن سوى مزية تضاف إلى خصالها الأخرى - فقد كانت ذات فهم

t.me/qurssan

واضح وقوي ومزاج رقيق وملائكي. كانت هي وأبي رفقاء لعب منذ الطفولة: ديانا، حتى في طفولتها كانت الابنة المفضلة لوالدة أبي، ازداد هذا التحيّز لهذه الابنة الجميلة والمفعمة بالحياة مع مرور السنوات، ولذلك في أثناء عطلاتها المدرسية والجامعية كانا معًا دائمًا. كانت الروايات وجميع الوسائل الأخرى التي يتوّصل من خلالها الشباب في الحياة المتحضرة إلى معرفة وجود الحب قبل أن يشعروا به فعلاً، ذات تأثير قوي عليه هو الذي كان حساسًا للغاية تجاه أي تأثير. في سن الحادية عشرة كانت ديانا رفيقة لعبه المفضلة، ولكنه كان قد عرف لغة الحب بالفعل. رغم أنها كانت تكبره بعامين فإن طبيعة تعليمها جعلتها أكثر طفوليةً على الأقل في ما يتعلق بمعرفة المشاعر والتعبير عنها. كانت تتلقى احتجاجاته الدافئة ببراءة، وتردّها وهي جاهلة بمعناها. لم تكن قد قرأت أي روايات من ذلك النوع، وارتبطت فقط بشقيقاتها الأصغر، فكيف كان لها أن تعرف الفرق بين الحب والصداقة؟ وعندما كشف لها نمو فهمها عن الطبيعة الحقيقية لهذه العلاقة، كانت مشاعرها قد ارتبطت به بالفعل كصديق، وتمثلتْ مخاوفها كلها في أن تؤدي به مواضع الافتتان الأخرى وتقلبات الأحوال إلى خيانة عهود الطفولة.

مع ذلك، أصبحا مع الوقت أكثر توقدًا ورقة. كان العشق هو الذي ترعرع مع تقدّمه في السن، وأصبح ممتزجًا مع كل خصلة وكل شعور ولم يعد من الممكن فقدانه إلا مع فقدان الحياة نفسها. لم يعرف أحد بحبهما باستثناء قلبيهما، ومع ذلك في كل المسائل الأخرى، وحتى في هذا الشعور كان مرتعبًا من لوم رفقائه بسبب الوقوع في الحب مع من هو أقل منه في الثروة، ولكن شيئًا لم يمكنه تقويض هدفه بتوحيد نفسه معها، بمجرد أن يصبح قادرًا على حشد شجاعة تكفي للتغلب على تلك الصعوبات التي كان مصمما على تجاوزها.

t.me/qurssan

كانت ديانا جديرة بالفعل بمشاعره العميقة هذه، بقلبها النقي نادر الوجود، وتواضع الروح الحقيقي المتمثل في اتِّكال راسخ على سلامة نيتها وعلى إيمان قوي بسلامة نية الآخرين. عاشت ديانا منذ ميلادها حياةً منعزلة، وفقدت والدتها في بداية طفولتها، ولكن والدها كرّس نفسه لرعايتها وتعليمها - كان لديه العديد من الأفكار الغريبة التي أثّرت في النظام الذي تبناه بشأنها - تعرّفت جيدًا على أبطال الإغريق واليونان، وأبطال إنجلترا الذين عاشوا منذ مئة سنة تقريبًا، ولكنها كانت جاهلة تقريبًا بالأحداث العابرة المعاصرة: فلم تقرأ إلا لبضعة مؤلفين ظهرت كتبهم خلال الخمسين سنة الأخيرة، ولكن قراءاتها بخلاف ذلك كانت مكثّفة للغاية. لذلك، رغم أنها بدت أقل درايةً بألغاز الحياة والمجتمع مقارنة بوالدي، كانت معرفتها أكثر عمقًا ومبنية على أسس أكثر رسوخًا، وحتى وإن كان جمالها وعذوبتها لم يفتناه فإن قدرتها على الفهم كانت لتُوقعه في حبالها. بالنسبة إليه كانت مرشدًا، وعبر هذا الافتتان كان يجد السعادة في زرع حس الدونية في عقله، الذي كانت تخلقه فيه أحيانًا.

عندما بلغ التاسعة عشرة من عمره ماتت والدته. ترك الجامعة حينها وابتعد عن أصدقائه القدامى لفترة وانعزل ليكون في جوار ديانا التي وجد في صوتها العذب وعناقها المحب كل العزاء. منحه هذا الانفصال القصير عن رفقائه الشجاعة على تأكيد استقلاليته. كان لديه شعور أنه رغم أي سخرية لديهم تجاه زواجه المرتقب فإنهم لن يجرؤوا على إظهارها عند حدوث الزواج، لذلك طلب موافقة الوصي عليه ونالها بعد مشقّة، وكذلك موافقة والد محبوبته التي نالها بسهولة أكبر، من دون إبلاغ أي شخص آخر بنيّته، وعندما بلغ العشرين من عمره أصبح زوجًا لديانا.

أحبّها بشغف وافتتن بسحر رقتها حتى إنه لم يكن يسمح لنفسه بالتفكير في أي شيء سواها. دعا بعض زملائه في الجامعة لرؤيته، ولكن

t.me/qurssan

تفاهتهم أصابته بالغثيان. كانت ديانا قد نجحت في تمزيق الستار الذي قيّده في صباه: أصبح رجلاً واندهش من قدرته على الانضمام إلى ركب كلمات وأفكار النفاق التي يعتنقها زملاؤه في الجامعة، وكيف أنه كان يخشى لوهلة لومهم وتقريعهم. تخلّى عن صداقاته القديمة ليس من دافع تقلّب الأحوال ولكن لأنهم كانوا غير جديرين به بالفعل. احتلت ديانا قلبه بالكامل: وشعرَ كما لو أن اتحاده بها قد منحه روحًا جديدة وأكثر إشراقًا. كانت مرشدته التي تعلّم على يديها الغايات الأصيلة للحياة. ومن خلال دروس عشقها نجح في طرح مساعيه القديمة، وتحول تدريجيًا حتى أصبح واحدًا ضمن المجموع، عضوًا مميزًا في المجتمع، محبًا لوطنه وعاشقًا مستنيرًا للحقيقة والفضيلة. أحبّها لجمالها وخفة روحها ولكن بدا أنه يعشقها أكثر لما رآه فيها من حكمة أسمى. تدارسا معًا، وركبا الخيل معًا، لم ينفصلا قطّ ونادرًا ما سمحا لثالث بالدخول إلى مجتمعهما الصغير.

لذلك، ارتقى والدي، بولادته وسط وفرة وازدهار دائم، سلّم الحياة من دون الصعوبات وخيبات الأمل الكثيرة التي يضعها القدر في طريق بقية البشر، أي أنه كان في أقصى قمة من السعادة، سطعت الشمس من حوله، في حين حجبت عنه السحب التي جعلت الأفق، بتشكّلات جمالها، مشرقًا، الحقيقة الجافة التي استقرت مختبئة أسفلها. من هذه اللحظة المربكة انطلق فورًا وهنأ نفسه بلا وعي على سعادته. وُلِدْتُ أنا بعد زواجهما بخمسة عشر شهرًا، وماتت أمي بعد ولادتي بأيام قليلة.

في تلك الفترة أقامت مع والدي إحدى شقيقاته. كانت تكبره بخمسة عشر عامًا تقريبًا، ولدتْ من زواج سابق لوالده. عندما مات هذا الأخير، وُضِعتْ هذه الشقيقة تحت رعاية أقربائها من الأم، نادرًا ما كانا يلتقيان، مع الاختلاف الحاد بين مزاجيهما. من هذه العمة، التي وضعوني تحت رعايتها لاحقًا، سمعت حكايات عن تأثير هذه

t.me/qurssan

الكارثة على شخصية والدي القوية والحساسة. فمن اللحظة التي ماتت فيها أمي حتى رحيله لم تسمعه ينطق بكلمة واحدة: مستغرقًا في كآبة حادة لم ينتبه لوجود أي شخص، وأحيانًا ما كانت عيناه تدرّان الدموع لساعات، أو يستولي عليه تجهم مخيف. بدا أن الأشياء خارجه جميعًا قد فقدت وجودها بالنسبة إليه، وأن شيئًا لن يخرجه من يأسه الساكن والصامت هذا سوى حالة واحدة فقط: لم يكن راغبًا في رؤيتي أبدًا. بدا جامدًا تجاه وجود أي شخص آخر، ولكن، كمحاولة لإيقاظ إحساسه بالأشياء، إذا حدث وجاءت بي عمتي إلى الغرفة، فإنه يهرع على الفور إلى الخارج يملؤه الغضب والارتباك. في نهاية أحد الشهور رحلَ عن المنزل فجأة، وفي غياب أي خدم من حوله، رحلَ عن ذلك الجزء من البلاد من دون أي كلمة أو إبلاغ أي شخص كتابةً بنواياه. كانت عمتي الوحيدة هي التي تحررت من قلقها بخصوص مصيره بعد أن تلقت خطابًا منه يحمل طابع بريد مدينة هامبورج.

كم سكبتُ الدموع على هذا الخطاب الذي كان حتى بلغتُ السادسة عشرة الذكرى الوحيدة التي تذكرني بوالديّ. قال في الخطاب: "اعذريني على القلق الذي سببته لكِ رغمًا عني: ولكن وجودي في تلك الجزيرة التعيسة، حيث كل الأشياء تطلق أنفاس روح الإنسانة التي فقدتها للأبد، أصابني بلعنة، ولكني نجحت في التحرر منها: رحلتُ عن إنجلترا لسنوات طويلة مقبلة، للأبد ربما. ولكن لإقناعك بأن مشاعر الأنانية لم تستولِ عليّ، بالكامل سأظل في هذه المدينة حتى أستلم خطابًا منك بأي ترتيب ترينه ضروريًا. عندما أغادر هذا المكان لا تنتظري أن تسمعي أخبارًا عني: عليّ أن أقطع جميع الصلات التي تربطني بأي شيء حاليًا. سأصبح جوّالاً، منبوذًا بائسًا - وحيدًا. . . وحيدًا" - في جزء آخر من الخطاب أشار إليّ - "وبالنسبة إلى المخلوقة الضئيلة البائسة التي أعجز عن رؤيتها، أو ذكرها بالكاد، أترك لكِ

t.me/qurssan

مسألة حمايتها ورعايتها: ربما أطالب باستردادها منكِ يومًا ما، ولكن مستقبلي مظلم، فاجعلي حاضرها سعيدًا".

بقيَ والدي في هامبورج لثلاثة أشهر، وعندما غادرها كان قد غيّر اسمه ولم تتمكن عمتي من معرفة اسمه الجديد أبدًا، وتمكنت فقط عبر إشارات خافتة من تخمين أنه اتخذ الطريق من ألمانيا والمجر إلى تركيا.

كانت نتيجة هذا أن تلاشت على الفور الروح الباسقة التي أثارت الاهتمام والتوقعات العالية في جميع من عرفه ومن يحمل له إجلالاً، أصبح منذ هذه اللحظة موجودًا بالنسبة إلى نفسه فقط. يتذكّره أصدقاؤه كمجرّد طيف لامع لن يعود أبدًا إليهم. انمحت ذكرى ما كان مع مرور السنين، فهو الذي كان في ما سبق جزءًا من أنفسهم ومن آمالهم، لم يعد الآن محسوبًا بين الأحياء.

t.me/qurssan

الفصل الثاني

أحكي الآن قصتي أنا. لا يوجد الكثير لأسرده خلال بدايات حياتي هناك، ولكنني سأكون موجزة، ولكن لا بدّ من أن أتوقف عند السنوات الأولى من طفولتي، فحينها قد يتضح أن أملاً واحدًا يخبو قد يجعل الحياة بكاملها خابية، وكيف أن عاطفة انفعالية واحدة ترعرعت داخلي قد تلاشت وانطفأ وجودي معها.

قلتُ إن عمتي لم تكن تشبه والدي بأيّ شكل. أعتقد أنها، بلا أقل لمسة من سوء الظن، كانت أكثر البشر الذين عرفتهم برودًا: لم تكن قادرةً أبدًا على أي مشاعر. أخذتني تحت حمايتها فقط لأنها رأت ذلك كواجب تتحمل مسؤوليته، ولكنها كانت قد عاشت لزمن طويل جدًّا وحيدة لا يزعجها ضجيج أو شغب الأطفال وبالتالي كنتُ ممنوعة من خرق الهدوء الذي يكتنفها. لم تتزوج أبدًا، وطوال السنوات الخمس الأخيرة عاشت بمفردها تمامًا في ضيعة كانت قد آلت إليها من أمها، على شواطئ لوخ لوموند في أسكتلندا. كان والدي قد أبدى رغبةً في مخاطبتها بأن تقيم معي في قصر عائلته الذي

t.me/qurssan

يقع في منطقة ريفية جميلة بالقرب من ريشمون في يوركشاير. ولم يكن لها أن توافق على هذا العرض، وبمجرّد أن رتّبت أوضاعها التي تسبب فيها رحيل شقيقها، غادرت إنجلترا وأخذتني معها إلى ضيعتها في أسكتلندا.

كانت الرعاية بي وأنا رضيعة من مسؤولية خادمة لأمي، صاحبَتنا في عزلتنا لذلك الغرض. وضعوني في جزء ناءٍ من المنزل، ولم أكن أرى عمتي إلا في ساعات محددة لمرتين في اليوم، الأولى نحو الظهيرة عندما تأتي إلى مخدعي، والثانية بعد العشاء عندما تأخذني الخادمة إليها. لم تحتضني أبدًا، وبدا أنني أبقى في غرفتي دائمًا خشية أن أضايقها بألعابي الطفولية. كانت ممرضتي الرائعة تمنحني تعليمات بأفضل حذر ممكن قبل أن نجرؤ على الدخول إلى الردهة - حيث نجد في انتظارنا الرهبة الهائلة التي تخلقها نظرات عمتي الباردة، والكلمات المعدودة التي تنطقها لدرجة أنني نادرًا ما كنت أخالف دروسها، أو أخرق الصمت التام الذي تعلمت أن أراعيه في أثناء هذه الزيارات القصيرة.

في ظل رعاية ممرضتي العطوف، كان بإمكاني الجري بجموح في حديقتنا والحقول المجاورة. نتيجة هذا الحب العميق كشفتُ في نفسي عن نزعة ذات حساسية هائلة. لا أستطيع القول بأي عاطفة أحببتُ كل شيء حتى الكائنات الجامدة من حولي. أعتقد أنني كنت أحملُ رابطًا فرديًّا بكل شجرة في حديقتنا، وكل حيوان يسكنها كان يعرف أنني أحبه. وموتهم من فترة لأخرى كان يملأ قلبي الطفل بالكرب الشديد. لا يمكنني أن أحصي عدد الطيور التي أنقذتها في أثناء الشتاءات الطويلة والقاسية لذلك المناخ، أو الأرانب الوحشية وصغارها الذين دافعت عنهم من هجمات كلابنا، أو الذين مرّضتهم بعد جرحهم صدفةً.

t.me/qurssan

عندما بلغتُ السابعة من عمري غادرتنا مربيّتي. ولا أتذكر الآن سبب رحيلها، هذا إن كنت عرفتُه حينها فعلاً. عادت إلى إنجلترا، والدموع الحارة التي سكبتها عند الوداع كانت آخر دفقة من الحب عرفتها لسنوات عديدة. كان حزني مريعًا: لم يكن لديّ أي أصدقاء في العالم أجمع. كنتُ تصالحت مع العزلة واستغرقت فيها ولكن أحدًا لم يملأ مكانها في وجداني. عشت في منطقة ريفية كئيبة حيث:

- لا أحد يقرظ مديحًا وقليل جدًّا من يحب[1]

إلا أنني أصبحت الآن أرى عمتي لفترات أطول قليلاً، ولكنها كانت انطوائية إلى حد بعيد، وبالنسبة إلى طفلة خجول بطبعها، كان هذا بالنسبة إليّ كنَبْتة أسفل غطاء كثيف من الجليد، كان عليّ أن أجرح يدي في محاولتي للوصول إليها. بالتالي أصبحتُ معتمدة بالكامل على نفسي. بدأ القس الذي يجاورنا في إعطائي دروسًا في القراءة والكتابة واللغة الفرنسية، ولكنه كان بلا أسرة وبدا لي أن طريقته تتسم بطابع المهنة التي يبرع فيها على نحو أساسيّ، أي ناظر مدرسة. أحيانًا ما كنت أتوقُ إلى تكوين صداقة مع أكثر الفتيات جاذبيةً من بين القاطنات في القرية المجاورة، ولكنني أنني لم أكن لأنجح في ذلك أبدًا، حتى لو لم تفرض عمتي سلطتها على لمنع أي اتصال بيني وبين القرويين، فقد كانت تخشى أن أكتسب اللهجة واللكنة الأسكتلندية، وهي لكنة اكتسبتها بعض الشيء بالفعل، رغم الصعوبات التي عانيتها في لساني حتى لا أصيب بالعار أصولي الإنجليزية.

مع تقدمي في السن ازدادت حريتي مع زيادة رغباتي، واتسعت جولاتي لتمتد من حديقتنا إلى الريف المجاور. كان منزلنا يقع على شواطئ البحيرة التي تنزلق المرجة الخضراء إلى حوافها، وكثيرًا ما كنت أتجوّل في المساحات البرية لهذه الريف الجميل وأتحول إلى

---

(1) مقطع من قصيدة "لوسي: ساكنة الدروب غير المطروقة" لويليام وردزورث - المترجم

t.me/qurssan

متسلقة جبال محترفة: أقضي الساعات على المنحدر المتدرج للجبال المتدلي على مسقط الماء، أو أجدّف في قارب صغير إلى إحدى الجزر. أتجوّل بلا نهاية في تلك البقع المنعزلة المدهشة، أجمع الزهرة بعد الزهرة وأغني (. . . طريقها ملوّن بالأزهار)[1] على حسب قدرتي على إتقان الألحان الجامحة للريف، أو أستغرق في أحلام اليقظة الممتعة. كانت متعتي الكبرى تتمثل في النظر إلى سماء رائقة وسط هذه الغابات الوارفة الخضرة: ومع ذلك أحببتُ كل تغيّرات الطبيعة، المطر والعواصف، والسحب الرائعة في السماء التي تأتي ببهجتها معها. وعندما أهتز بفعل أمواج البحيرة كانت روحي تتسامى في انتصار، كما يمكن لفارس أن يشعر بالفخر بخطوات جواده الجامحة.

إلا أن متعي ومباهجي كانت نتيجة التأمل في الطبيعة وحدها، لم يكن لدي رفيق: فمشاعري الدافئة، وهي التي لم تجد صدى لدى أي قلب إنساني آخر، اضطرت إلى أن تبحث عن بديل في الكائنات الجامدة. أحيانًا ما كنت أبكي حقًّا عندما تتلقى عمتي أحضاني ببرود بغيض، أو عندما أتطلع حولي ولا أجد من أمنحه الحب، ولكن سرعان ما جفت دموعي. ومع مرور السنين حلّت الكتب إلى درجة ما مكان التواصل البشري: كانت مكتبة عمتي صغيرة جدًّا، شكسبير وميلتون، بوب وكوبر، كانوا خليط الشعراء العجيب في مجموعتها، وبين مؤلفي النثر كانت ترجمة ليفي والتاريخ القديم لرولين بين كتبي المفضلة، رغم أنه مع خروجي من طور الطفولة وجدت آخرين أكثر إثارة للاهتمام بكثير كنت أراهم مملين قبل ذلك.

عندما بلغتُ الثانية عشرة من عمري، قررت عمتي أن أبدأ تعلّم الموسيقى، كانت هي نفسها تعزف على القيثار. وبعد كثير من التردد

---

(1) بيت شعر لدانتي جاء في "الكوميديا الإلهية"، قاله عندما سمع غناء امرأة في جنة عدن الأرضية (المترجم)

t.me/qurssan

أقنعت نفسها بأن تتعهد بتدريبي، مع ذلك و مع إيمانها بأن هذا الأمر هو جزء ضروري من تعليمي، ولتجنب آثاره المتمثلة في وجود شخص غريب في المنزل، استسلمت هي لهذه المهمة. خصصت لي آلة قيثار حتى لا يتداخل عزفي مع عزفها، وبدأتُ في العزف: وجدتني طيّعة، وبعد إتقاني المبادئ الأولية أصبحتُ ضليعة جدًّا. وجدتُ في القيثار رفيقًا في الأيام المطيرة، مهدئ حلو لمشاعري عندما تقع لي حادثة غير مواتية: ما دمت خاطبته على أنه "صديقي الوحيد"، واستطعت أن أسكب فيه آمالي ومشاعر حبّي، وتخيلتُ أن أنغامه الحلوة تجيبني. وهذه هي جميع الدراسات التي انخرطتُ فيها.

كنتُ كائنًا منعزلاً، ومنذ سنين الطفولة، ومنذ رحيل مربيتي العزيزة، انغمستُ في الأحلام. نفختُ الحياة في روزالينـد وميراندا وشخصية البطلة في كوموس[1] وأصبحنّ رفقائي، وعلى جزيرتي تقمصتُ أدوارهنّ متخيلةً نفسي في المواقف التي مررنّ بها. ثم أهيم في خيالات الآخرين وأشكّل مشاعر وعلاقات حميمية مع كائنات أثيرية من صنع عقلي - ولكن متعلقة رغم ذلك بالحقيقة- ومانحةً أسماء لهذه التصورات التي احتضنتها على أمل أن تتحقق يومًا. تعلقتُ بذكرى والديّ، أمي لن أراها أبدًا فهي ميتة: ولكن صورة (أبي) المتجوّل التعيس أصبحت معبودة خيالي. منحته كل انفعالاتي، كان هناك تمثال مصغّر له أحملق فيه باستمرار، نسختُ خطابه الأخير وقرأته مرات ومرات. أحيانًا ما يجعلني أبكي وأحيانًا أخرى أكرر حرفيًّا هذه الكلمات، - "ربما أطالب باستردادها منكِ يومًا ما". كان من المفترض أن أكون معزيّته ورفيقته في السنين التي تلت. كان حلمي المفضّل أن أكبر وأغادر عمتي، التي كان برودها يقتل ضميري، ثم أتنكر في صورة صبي وأبحث عن أبي عبر العالم. اعتمد خيالي على مشهد التعرّف عليه، تمثاله الصغير،

---

(1) روزالينـد وميرانـدا من شخصيات مسرحية "على هواك" لشكسبير، و"كوموس" مسرحية تنكرية لجون ميلتون - المترجم

t.me/qurssan

الـذي أرتديـه باسـتمرار مكشـوفًا عـلى صـدري، سـيكون الوسـيلة لذلـك. ثـم أتخيّـل هـذه اللحظـة في عقـلي آلاف وآلاف المـرات، وأنـوّع الظـروف المحيطـة دائمًـا. أحيانًـا مـا يكـون ذلـك في صحـراء، في مدينـة عامـرة بالناس، في حفلـة راقصـة، ربمـا نتقابـل عـلى سـفينة، ولكـن كلماتـه الأولى كانـت ثابتـة دائمًـا: "ابنتـي، أحبـكِ!". كـم مـن لحظـات منتشـية عرفتهـا في هـذه الأحـلام! كـم مـن الدمـوع سـكبت، وكـم مـن ضحكـة مجلجلـة صـدح بهـا فمـي.

هكـذا اسـتمرت حيـاتي لسـتة عـشر عامًـا. في العـام الرابـع عـشر أو الخامـس عـشر كثـيرًا مـا ظننـتُ أن الوقـت قـد حـان لأبـدأ رحلتـي الطويلـة، التـي نجحـتُ في إقنـاع عقـلي بالإيمـان بأنهـا واجـب مقـدس مُلـحّ: لكـن النفـور مـن تـرك عمتـي، وكنـتُ محبوسـة في تأنيـب ضمـير عـلى الحـزن الـذي سـيصيبها عنـد رحيـلي، كان أمـرًا لم أسـتطع أن أخفيـه عـن نفـسي. أحيانًـا، بعـد أن أخطـط لهـروبي في الصبـاح التـالي، تجـبرني كلمـة تنطلـق مـن شـفتيها بعاطفـة أكـبر مـن المعتـادة منهـا عـلى تأجيـل قـراري. ألـوم نفـسي بقسـوة عـلى مـا أسـميته الضعـف المذنِـب، ولكـن هـذا الضعـف كان يعـاودني كلـما اقتربـت اللحظـة الحرجـة، ولم أجـد أبـدًا الشـجاعة اللازمـة للرحيـل.

t.me/qurssan

الفصل الثالث

في عيد ميلادي السادس عشر تلقتْ عمتي خطابًا من أبي. لا يمكنني وصف ثورة الانفعالات التي انفجرت داخلي عندما قرأته. كان بطابع بريد لندن، لقد عاد! لم أتمكن من تفريغ انفعالاتي الشديدة إلا بالدموع، دموع بهجة مطلقة. لقد عاد، وكتبَ إلينا لمعرفة ما إذا كانت عمتي ستأتي إلى لندن أو أنه سيزورها في أسكتلندا. كم كانت رائعة كلمات خطابه بشأني: "لا أستطيع أن أصف توقي إلى رؤية ماتيلدا. أراها كالمخلوق الذي سيشكّل سعادة حياتي المستقبلية: فهي الشخص الوحيد الذي يهمني على وجه الأرض. أمنع نفس بالكاد من الإسراع والمجيء إليكما، إلا أن الضرورة تجبرني على البقاء لأسبوع لآخر، ولكن أكتب إليكِ فربما أراكما أقرب من ذلك". التهمتُ تلك الكلمات بعيني، قبّلتها، سكبت عليها الدموع وصرخت، "سيحبني حقًا!"

لم تكن عمتي لتبدأ رحلة طويلة كهذه، ولكن في غضون أسبوع تلقينا خطابًا آخر من أبي، وكان يحمل طابع بريد أدنبره: كتبَ قائلاً

t.me/qurssan

إنه سيكون معنا في غضون ثلاثة أيام. "بسبب اشتعال رغبته في رؤيتي، وحماسه المتزايد لذلك، وشعوره أن لحظة احتضاني بين ذراعيه ستكون أسعد لحظات حياته".

في هذه الأيام الثلاثة استولى عليّ ضجر الانتظار! فقدتُ فيها النوم والشهية، لم أفعل سوى قراءة وإعادة قراءه خطابه، وفي عزلة الغابات تخيّل لحظة لقاءنا. في عشية اليوم الثالث انعزلتُ في غرفتي تمامًا، لم أستطع النوم، وقضيت الليل بطوله أخطو وأتجول في غرفتي، وكما اعتاد الناس في أسكتلندا في أواسط الصيف، أراقب أثر الشمس القرمزي في طوافها حول الأفق الشمالي. في الفجر أسرع إلى الغابة، تمرّ الساعات وأنا مستغرقة في الأحلام الجامحة التي تمنح الأجنحة لخطوات الزمن المتراخية، وتزجي فراغ صبري وتوقي. كان من المنتظر أن يصل أبي في الظهيرة، ولكن عند عودتي إلى المنزل لاستقباله، اكتشفت أنني ضللتُ طريقي: وبدا أن كل محاولة لإيجاده تزيد من تعقيدات الغابة وأن الأشجار تحجب كل أثر قد يرشدني إلى ضالتي. تزايد جزعي وقلقي، بكيت، اعتصرتُ ذراعي ولكنني لم أجد ضالتي رغم ذلك.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عندما اكتشفتُ عبر انعطافة مفاجئة أنني على بعد خطوات من البحيرة القريبة من الخليج الذي يرسو عليه القارب الصغير - لم أكن بعيدةً عن منزلنا ورأيت أبي وعمتي يسيران على المرج الأخضر. قفزت إلى القارب، وبسبب اعتيادي على الإبحار به نجحتُ في دفعه بعيدًا عن الشاطئ، وبذلتُ قصارى جهدي للتجديف بأسرع ما يمكن. عند مجيئي، مرتديةً فستانًا أبيض، لا يغطيني سوى قماش الراشان الصوفي المقلم، شعري منزلق على كتفيّ، ومندفعة بالقارب بأعلى سرعة أستطيعها. بدوت كوصف أبي لي ذات مرة بأنني أشبه روحًا أكثر من كوني فتاة بشرية. اقتربتُ من الشاطئ، أمسك أبي بالقارب لإيقافه، وقفزتُ بخفة خارجة منه، وفي لحظة كنتُ بين ذراعيه.

t.me/qurssan

والآن بـدأت الحيـاة تـدب في أوصـالي. تغـيّر كل مـا حـولي مـن رتابـة مملـة إلى أكـثر مشـاهد الفرحـة والبهجـة سـطوعًا. السـعادة التـي استمتعت بهـا في صحبـة والـدي تجـاوزت أقـصى توقعـاتي. أصبحنـا معًـا للأبـد، ومواضيـع محادثاتنـا لا تنتهـي. كان قـد قـضى سـتة عـشر عامًـا مـن الغيـاب في بـلاد غـير معروفـة تقريبًـا في أوروبـا، وتجـول في أنحـاء فـارس وجزيـرة العـرب وشـمال الهنـد، واجتـاز مواطـن السـكان الأصليـين بحريـة ممنوحـة لقلـة مـن الأوروبيـين. كانـت حكاياتـه عـن عاداتهـم ووصفـه للمشـاهد تمـلأ سـاعات طويلـة مدهشـة، بعـد أن نكـون قـد سـئمنا مـن التحـدث عـن خططنـا بشـأن الحيـاة المسـتقبلية.

أصبـح صـوت المشـاعر الآن جديـدًا بالنسـبة إليّ، لدرجـة أننـي تعلقـت بفرحـة بكلماتـه عندمـا أخـبرني بمـا كان يشـعر بـه تجاهـي طـوال تلـك السـنوات مـن النسـيان الظاهـري. قـال لي: "في البدايـة، لم أتحمّـل التفكـير في فتـاتي الصغـيرة البائسـة، ولكـن بعـد تـلاشي الحـزن وظهـور الأمـل مـن جديـد لم أسـتطع سـوى العـودة إلى التفكـير فيهـا وفي تكوينهـا الضئيـل الجميـل في أثنـاء تجـوالي بـين المـدن والصحـارى، كـما تخيلتـه، مرفرفًـا دومًـا بجناحيـه. كانـت نسـائم الشـمال المنعشـة أكـثر حـلاوة واعتـدالاً وبـدا أنهـا تحمـل بعضًـا مـن روحـك معهـا. كثـيرًا مـا فكّـرت في أننـي سـأعود عـلى الفـور وآخـذك معـي إلى جزيـرة خصبـة نعيـش فيهـا بسـلام إلى الأبـد. عنـد عـودتي شـابت آمـالي المتقـدة مخـاوف عـدة، تنامـى قلقـي إلى أكـبر درجـة مؤلمـة. لم أجـرؤ عـلى التفكـير في أن الشـمس تسـطع والقمـر يرتفـع، ليـس عـلى تكوينـك الحـي ولكـن عـلى قـبرك. ولكـن لا، لم يكـن الأمـر كذلـك، مـا زالـت ماتيلـدا لـديّ، ابنتـي الحبيبـة، عـزائي وأمـلي".

بـدا أبي متغـيّرًا قليـلاً عـمّا وصفـه لي عـن نفسـه قبـل أن تصيبـه المحنـة. ربمـا هـو التعامـل مـع المجتمـع المتمـدّن، خيبـة الآمـال العزيـزة، أو زيـف الأصدقـاء، أو التصـادم الأبـدي للانفعـالات الوضيعـة التـي تغـيّر مـن القلـب وتقتـل حـماس الانفعـالات الشـابة، فالتجـوّلات وحيـدًا في بـلاد متوحشـة

t.me/qurssan

بين أناس ذوي عادات بسيطة أو وحشية قد تصيب الجسد بالخمول ولكنها لا تروِّض الروح، أو تطفئ حماسة وعذوبة انفعالات الشباب. تزايدت طاقة شخصيته على نحو ما بفعل شمس الهند الحارقة، والتحرر من جميع القيود: قبل أن يستسلم، الآن وقد أصبح لا يطيق أي لوم أو تقريع باستثناء لوم الذات النابع من عقله. كان قد رأى عادات وتقاليد كثيرة وشهدَ تنويعة من العقائد الأخلاقية التي أجبرته على تكوين عقيدة مستقلة لنفسه بلا أي رابط بالأفكار الفريدة لكل بلد على حدة: بالطبع أثّرت تحيّزاته السابقة في أحكامه بشأن تكوين مبادئه، وتداخلت على نحو غريب مجموعة من الأفكار الفجّة مع أعمق استنتاجات عقله الثاقب.

ولكن الخواء الذي تشبّع به قلبه من أي اهتمام أصيل بالحياة، في أثناء غيابه الطويل عن بلده الأم، كان له تأثير غريب في أفكاره. راوده شعور غامض بوهم يربط بينه وبين حياته في الخارج مقارنةً بسنوات شبابه. الوقت الذي قضاه خارج إنجلترا بكامله كان حلمًا، وكل اهتمام وشغف في روحه، وكل انفعالاته ارتبطت فقط بالأحداث التي وقعت قبل ذلك، وبالأشخاص الذين ظهروا في حياته قبل ستة عشر عامًا. كان غريبًا أن تسمعه وهو يتحدث لترى كيف اجتاز هذا الفاصل الزمني كأنه ليلة واحدة مليئة بالرؤى والأحلام، في حين أن ذكريات شبابه، المنفصلة عن حياته اللاحقة، لم تفقد أيًّا من بريقها. تحدّثَ عن أمي كما لو كانت تعيش منذ أسابيع خلت لا غير، على نحو يخلو تمامًا من أي حزن شجي، ولكن وصفه لشخصها، وسرده لجميع الحكايات المرتبطة بها، جعله متوهّجًا ومفعمًا بالحيوية.

في كل هذا لاحظتُ غرابةً جذبتني وأطربتني. بدا لي كما لو أنه استيقظ لتوّه من سبات طويل مليء بالأحلام، كما لو أنه واحد

t.me/qurssan

مـن أصحـاب الكهـف، أو كأنـه نـور جهـاد(1)، في محـاكاة عذبـة لحكايـة شرقيـة: رحلـت ديانـا، وتبـدل أصدقـاؤه أو ماتـوا، والآن في صحوتـه كنـتُ الشـخص الوحيـد الـذي يتلقـى حبـه في هـذا العـالم.

كـم كانـت عزيـزة عـليّ مسـاقط الميـاه، والجبـال وغابـات لـوخ لومونـد الآن وقـد أصبحـت معـي صحبـة عزيـزة جـدًّا في جـولاتي. زرتُ مـع أبي كل الأماكـن المبهجـة، عـلى الجـزر أو عـلى جانـب مسـاقط الميـاه التـي تخفيهـا الأشـجار، في كل مسـار ظليـل، أو وادٍ صغـير تشـتبك فيـه السراخـس والشـجيرات الصغـيرة. كانـت أفـكاري تتسـع عـبر التحـدث معـه. شـعرتُ كـما لـو أني أخلـق مـن جديـد وأسـتغرق بوجـداني في عذوبـة وكيـان جديـد: أي أننـي انتقلـتُ منـذ وصولـه مـن بقعـة ضيقـة مـن الأرض إلى كـون بـلا حـدود يعجـز عـن تصـوّره الخيـال والفهـم. كانـت حيـاتي قبـل ذلـك مجـرد غديـر ريفـي رائـع، يفـرض عليـه القـدر ألّا يغـادر حقـول موطنـه الأصليـة، بـل يجـف بـلا أثـر فـور أن ينجـز مهمتـه بهـدوء. والآن بـدا لي ذلـك كنهـر متعـدد الأشـكال يتدفـق عـبر أراضٍ خصبـة ومدهشـة، متغـيّر وجميـل بـلا نهايـة. ولكـن واحسرتـاه! لم أعـرف أنـه كان عـلى وشـك الوصـول إلى الصحـراء، كنـت جاهلـةً بالصخـور التـي سـتمزّق مياهـه، وبالصـورة البشـعة التـي سـتنعكس بطريقـة مشـوهة عـلى أمواجـه. كانـت الحيـاة حينهـا مشرقـة، بـدأتُ في معرفـة مـا هـو الأمـل. ولكـن مـا الـذي يجلـب يأسًـا أكـثر مـرارةً مـن أمـل مهـدور؟

أليـس غريبًـا أن يصيبنـا الحـزن دائمًـا بعـد كل شـعور بالسـعادة الإلهيـة؟ شربـتُ مـن كأس النشـوة ولكـن المـرارة كانـت قابعـة في قـاع حلاوتـه المسـهبة. كان قلبـي ممتلئًـا بانفعـال عميـق، ولكنـه كان هادئًـا في أعمـق أعماقـه. لم أتخيّـل أن تولـد المأسـاة مـن الحـب، وهـذا الـدرس

(1) أوهـام وإغـماءات نـور جهـاد، ميلودراما مجهولـة المؤلـف ظهـرت عـام 1813، وإن عزاهـا البعـض إلى لـورد بايـرون - المترجـم

t.me/qurssan

الـذي يجـب أن نتعلّمـه جميعًـا عاجـلاً أم آجـلاً، تعلّمتـه أنـا بطريقـة لم تتوافـر لكثيريـن. أنتحـب الآن، عـليّ أن أنتحـب للأبـد، عـلى تلـك الشـهور القليـل مـن النعيـم الفـردوسي، لم أعـصِ أمـرًا، لم آكل تفاحـة، ومـع ذلـك طُـردتُ منهـا بـلا رحمـة. واحسرتـاه! ولكـن رفيقـي عـصى، وسـقطتُ أنـا مـع سـقوطه. ولكنـي أبتعـد عـن حكايـاتي الأصليـة - لتـأتي المحنـة في وقتهـا المقـدّر، ولأسـتمر في التحـدث في هـذا الجـزء مـن قصتـي عـن السـعادة رغـم ذلـك.

انقضـتْ ثلاثـة أشـهر في هـذا الوصـال المبهـج، حتـى سـقطت عمتـي فريسـة للمـرض. مكثـتُ شـهرًا كامـلاً في غرفتهـا أعتنـي بهـا، ولكـن مرضهـا كان قاتـلاً فماتـت تاركـةً إيـاي في فجيعـة لا عـزاء لهـا لبعـض الوقـت. فالمـوت فجيعـة للأحيـاء، وسلاسـل العـادة قويـة للغايـة حتـى وإن لم تربطهـا العاطفـة الطيبـة لدرجـة أن القلـب لا بـدّ مـن أن يتـألم لكسرهـا. ولكـن أبي كان بجانبـي لتعزيَتـي ولإبعـاد الذكريـات المريـرة عـبر الآمـال المشرقـة: كنـتُ أظـن أنـه مـن العـذب أن أحـزن حتـى يجفـف هـو دموعـي.

نجـح أبي في تشـتيتْ أفـكاري وحـزني عـبر مقارنتـه بيأسـه عندمـا فقـد أمـي. حتـى في هـذه المـرة ارتعـدتُ أمـام الصـورة التـي رسـمها لانفعالاتـه: كان يتمتـع بخيـال شـاعر، وعندمـا كان يصـف الدوّامـة التـي مزّقـت مشـاعره أضفـى عـلى كلماتـه طابـع مـن الحيـاة جعلني أعايشـها مرتعشـةً. تسـاءلتُ حينهـا كيـف يمكنـه الولـوج مـرةً بعـد أخـرى إلى مسـارات الحيـاة بعـد هـذه الأفـكار الجامحـة التـي بـدت كأنهـا خلقـت رابطًـا بينـه وبـين مـا هـو غـير أرضي. في أثنـاء حديثـه كانـت الأفـكار التـي ينقلهـا شـديدة الجمـوح لدرجـة أنهـا بـدت كـما لـو كان القلـب البـشري عاجـزًا تمامًـا عـن اسـتيعابها. بـدت مشـاعره ملائمـة لـروح تسـكن الـزلازل والبراكـين وليسـت مجـرد روح مقيـدة في جسـد فـانٍ وملامـح بشريـة. ولكـن كل هـذا ليـس سـوى ذكريـات، فقـد تغـيّر منـذ ذلـك الحـين. أصبـح الآن مسـتغرقًا في

t.me/qurssan

الحب والعذوبة، وعندما يرتفع حاجباي في اندهاش من حديثه أرى ابتسامته تخبرني أن قلبه ممتلئ بأعذب العواطف.

بعد وفاة عمتي بشهرين انتقلتا إلى لندن، وفيها وجّهني أبي لحضور دراسات أكثر تعمقًا من تلك التي انشغلت بها في الماضي. كان نجاحي موضع ابتهاج له، صاحبني في أثناء دراساتي كلها وساعدني أو اشترك معي فيها. تقابلنا مع جزء كبير من شرائح المجتمع، ولم يكن يمر يوم لا يحاول فيه أبي تجميله بمتعة جديدة. الرابطة الرقيقة بيننا، والحب والعرفان التي قابلتها بها أضفت سحرًا على كل لحظة. مرت الساعات متسارعة فكل دقيقة كانت مشغولة، وفي أسبوع كنا نستمتع بأكثر مما يحيا الكثيرون على مدار أشهر عدة، والجِدَّة والتنوع في أوجه المتعة التي عشناها منحت الحماس لكلينا.

كانت رحلاتنا وجولاتنا معًا لا تنقطع، سواء ألزيارة أماكن ذات مناظر بديعة، أم رؤية لوحات من الفن الرفيع، وأحيانًا بلا هدف سوى البحث عن التسلية متى سنحت الفرصة، كنتُ سعيدة دومًا بالقرب من أبي. كان الأسف هو ما يصيبني عندما ينضم إلينا شخص آخر، ورغم ذلك، عندما أستدير بنظرة انزعاج نحو أبي، ويردّها لي بنظرة مِلؤها الحنان، يستعيد قلبي بهجته على الفور. أوه، كانت ساعات من البهجة المطلقة! تبدو لي كعمر كامل عندما أستعيدها وأتذكرها عبر ضباب الحزن الذي يرتفع فجأةً كما لو كان لحجبكَ عن عينيّ. واحسرتاه! كانت تلك الساعات آخر سعادة أعرفها، أسابيع معدودة، معدودة جدًّا ثم ضاع كل شيء. وكأنني سايكي في محنتها[1]، عشت لبرهة في قصر النشوة، وسط أريج العطور، والموسيقى، وكل

(1) تشير ماري شيلي إلى قصة "سايكي وكيوبيد" التي وردت في رواية الجحش الذهبي للوكيوس أبوليوس، وفيها تعاني الأميرة سايكي، الفائقة الجمال، من مؤمرات فينوس بسبب الغيرة من جمالها. رغم طابعها الأسطوري والشعبي، فإن مصدر القصة الأصلي يشوبه الغموض - المترجم

t.me/qurssan

مباهـج الرفاهيـة، وبعدهـا تركـتُ عـلى صخـرة جـرداء، في قلـب محيـط شاسـع مـن اليـأس: في الأعـالي ينتـشر السـواد، وعينـاي مغلقتـان ويسـكن داخـلي مـواتٌ كـوني. رغـم ذلـك، أودّ ألّا أمـضي في حديثـي، بـل أتوقـف لبرهـة لا تنتهـي لأتذكـر تلـك الأسـابيع السـعيدة، أودّ أن أكـرر كل كلمـة، وكـم مـن كلـمات أتذكّرهـا، وأسـجّل كل نشـوة عرفتهـا في موطـن الجنيـات. ولكـن لا، يجـب ألا تتوقـف حكايتـي، يجـب أن تمـر مسرعـة كـما كان قـدري، لا أسـتطيع سـوى أن أصـف بتعبـيرات قويـة ومقتضبـة التغـيّر العضـال والمفاجـئ الـذي حـلّ بي مـن طـور السـعادة إلى اليـأس.

t.me/qurssan

الفصل الرابع

من بين زائرينا الأكثر مواظبةً على الحضور كان رجل ذو رتبة، واسع الإطلاع ومقبول في شخصه. بعد أن قضينا أسبوعين في لندن أصبح اهتمامه ناحيتي لافتًا وزياراته أكثر تكرارًا. كنتُ حينها مستغرقة تمامًا في انفعالاتي وأفكاري فلم ألتفت كثيرًا لهذا الاهتمام، ولم ألاحظ سوى مظهر الأحداث وهي تقع من حولي، ولكنني أتذكر الآن الاضطراب والقلق الذي كان يبدو على أبي متى زارنا هذا الشخص، وعندما كنت أتحدث معه كان أبي يراقبنا بأكبر قلق ممكن رغم استغراقه هو نفسه في صمتٍ عميق. في نهاية المطاف، توقفت هذه الزيارات البغيضة فجأة تمامًا، ومن هذه اللحظة عليّ أن أبدًا تأريخ التغيّر الذي وقع لأبي: تغيّر يصيبني مجرد تذكره بالرعب ويملؤني بالحزن. لم يكن هناك أي تدرّج في سقوطي المدوي من السعادة إلى التعاسة، كان كضربة برق - مفاجئة وكاسحة. واحسرتاه! الآن لا أجد سوى العبوس بدلاً من الابتسامات: بدأ أبي الحبيب في اجتنابي، ومعاملتي إمّا بقسوة وإما ببرود أكثر إيلامًا. لم تعد هناك نصائح عذبة من جانبه، ومتى حاولتُ

t.me/qurssan

استمالته إلى جانبي مرةً أخرى، يدفعني غضبه والمشاعر المريعة التي يبديها إلى الاستغراق في الصمت والدموع.

حدث كل هذا بغتةً. أتذكّر، في اليوم الذي في قضيناه معًا في الريف، أتذكّر أننا تحدثنا عن الرحلات المستقبلية التي ينبغي أن نقوم بها معًا. كانت البهجة الحماسية تملأ نغمات كلامنا وإيماءاتنا، وهي بهجة لا يمكن أن تنبع إلّا من حب عميق متبادل يرتبط بأكبر ثقة متبادلة ممكنة، وفي اليوم التالي، في الساعة التالية، رأيت حاجبيه ينكمشان، وعينيه مثبتتين في عنف متجهم على الأرض، وصوته الخافت والعزيز يملؤني رجفةً عندما يخاطبني. غالبًا، عندما أستغرق في خيالي الجوّال بصوره المتعددة، وهو خيال أصبح الآن عزاءً ومصدر حزن لي في آن واحد، أقارن نفسي ببروسربينا[1] التي كان تجمع الأزهار بعناية وبهجة في أرض إينا المنبسطة الجميلة، عندما اختطفها ملك الجحيم بعيدًا إلى مواطن الموت والمأساة. واحسرتاه! أنا التي لم تعرف إلا بهجة الحياة، التي لم تعرف إلا الأحلام العذبة في نومها ولم تستيقظ إلا على سعادة لا توصف، أقضي الآن الأيام والليالي في دموع. أنا التي بحثت عن البهجة ووجدتها في السيماء المستغرقة في الحب لأبي، لا أجد الآن، عندما أجرؤ على التطلع إليه بنظرة متضرعة، إلا تقطيبة غاضبة. لم أجرؤ على التحدث إليه، وعندما أستجمع شجاعتي لملاقاته وسؤاله عن تفسير ما، تكفي خلجة واحدة على وجهه، تملؤه فوضى الانفعالات الجبارة المصارعة، لجعلي أرتجف وأنكمش في صمت. طُردتُ من الجنة إلى الأرض كما يمكن لصقر قوي أن ينقض على عصفور ضعيف أحمق، بدوار في عينيّ وذهول في رأسي بسبب الظهور المفاجئ للحزن. أصبحت الأيام تمر تلو الأيام لا يميّزها سوى شكواي ودموعي، كثيرًا ما حاولتُ رفع معنوياتي عبر صلوات لا طائل منها من أجل سقوط أقل إيلامًا

(1) بروسربينا: إلهة في الميثولوجيا الرومانية، اختطفها إله العالم السفلي وانطلقت أمها سيرس في بحث محموم عنها - المترجم

t.me/qurssan

من البهجة إلى الألم، أو على الأقل، إذا لم يستجب الله لدعائي، أن أموت وأتلاشى للأبد تحت الضربة القاسية التي ألمّت بي،

وإلّا فماذا عليّ أن أفعل هنا،

كزهرة ينخرها السوس

أذوي في ظل كلماته المريرة،

التي تملأ حرارتها الشجية قلبي الضعيف بالحياة؟[1]

أحيانًا ما كنتُ أقول لنفسي، إن كل هذا ما هو إلا سحر، ويجب أن أصارعه. إن أبي قد أصابه العمى بسبب رؤية شريرة ما عليّ أن أنزعها عن عينيه، وكما هي الحال مع داوود، سأستعمل الموسيقى لنزع الروح الشريرة عنه. ذات مرة في أثناء غنائي رفعتُ عينيّ نحوه ورأيتُ عينيه مثبتتين عليّ وتمتلئان بالدموع، عضلاته كلها بدت كأنها تراخت في نعومة. فأقفز نحوه بصرخة فرحة وأتمنى لو ألقي بنفسي بين ذراعيه، ولكنه يدفعني بعنفه ويتركني. ولكن حتى هذه الحوادث البسيطة كانت تصيبه بتجهم جديد وقسوة إضافية في سلوكه معي.

حوادث كثيرة يمكن أن أرويها تدلُ على حالته العقلية المريضة وغير القابلة للفهم، ولكنّي سأذكر واحدة فقط وقعت عندما كنّا في صحبة أشخاص عدة آخرين. في تلك المناسبة جرؤت على القول إن ميرها[2] هي أفضل مسرحيات ألفيري التراجيدية، وعندما قلت هذا تحوّلتُ بنظري إلى أبي وتقابلت أعيننا: للمرة الأولى يصيبني تعبير هاتين العينين المحبوبتين بالتعاسة، وعندما رأيت برعب أن هيئته بالكامل قد ارتعشت بانفعال باطني، شعرت به رغم محاولاته لإخفائه: ومع

---

(1) من مسرحية القبطان لفرانسيس بومو وجون فليتشر - المترجم

(2) ميرها (Myrrha - Mirra)، المعروفة أيضًا باسم سميرنا: هي والدة أدونيس في الأساطير اليونانية، وتحولت إلى شجرة من المرّ بعد أن جامعت والدها وأنجبت أدونيس كشجرة.. ظهرت هذه الأسطورة أيضًا في تحوّلات أوفيد والكوميديا الإلهية لدانتي - المترجم

t.me/qurssan

تلاشي هذه العاصفة من روحه استولت عليه السوداوية والصمت. في كل يوم كان يحدث موقف جديد يدل على أن عقله يعمل كما لو بقوة رعب مجهول، يستطيع السيطرة عليه الآن، ولكن يوشك أحيانًا أن يودي بعقله، ويلقي باستقرار قريحته المتألقة إلى فوضى أبدية.

لن أشير إلى هذه الظروف الكارثية أكثر من هذا، فقد تضيع أيام في وصف كيف كنت أراقب بقلق كل تغيّر للظروف العابرة قد يشي بأيام أفضل، وبأي يأس اكتشفت أن كل مجهود من ناحيتي يزيد من حدة جنونه البادي. لكي أحكي عن حزني عليّ أن أحاول أيضًا إحصاء قطرات الدموع التي انسكبت من هاتين العينين، وكل علامة مزّقت قلبي. سأكون موجزة، ففي كل هذا كان يكمن رعب لا يحتمل الإسهاب، وسأهوي إلى الموت مرة أخرى في استدعائي لتلك المشاهد الحزينة إلى ذاكرتي. أوه، يا أبي الحبيب! كم جعلتني بائسة حقًّا على نحو لا يوصف، وكم سامحتك رغم ذلك من كل قلبي، وكم ملكت جماع قلبي عندما سعيتُ، كما تسطع أشعة قوس قزح على الشلالات، لأن أخفف من أحزانك الهائلة.

على هذا النحو حدث التغيّر. يبدو أنني اندفعت سريعًا وفجأةً نحو وصف الأحداث، ولكن ذلك لأنها حدثت فجأة. في جملة واحدة انتقلتُ من فكرة السعادة التي لا توصف إلى فكرة الحزن الذي لا يوصف ولكنهما كانت مرتبطتين على نحو وثيق. كنا قد بقينا في لندن خمسة أشهر، ثلاثة أشهر من البهجة واثنين للحزن. ونادرًا الآن ما نكون أنا وأبي بمفردنا، أو إذا كنا بمفردنا فإنه كان عادةً ما يبقى صامتًا وعيناه مثبتتان على الأرض - المدارات المظلمة المكتملة التي كنت أقرأ فيها في الماضي مبتهجةً كل المشاعر العذبة والرقيقة، أصبحت الآن محتجبة عن ناظريّ بجفون تلك المدارات وحواشيها الطويلة. في صحبة الآخرين كان أبي يفرض بهجةً ما تصيبني بالبكاء عندما أسمع ضحكاته المجوّفة - التي تبدأ بابتسامة جوفاء وتنتهي

t.me/qurssan

غالبًا بسخرية مريرة لم ترد قط على شفتيه قبل تلك الفترة القاتلة. في وجود الآخرين من حولنا كان غالبًا ما يتحدث إليّ وعيناه تتابعان من كثب أقل حركاتي خفوتًا. ولكنته متى خاطبني كانت باردة ومتكلفة رغم الرعشة في صوته عندما يرى قلبي بكامله يختنق بإجابةٍ على كلمات تخرج من ملامح وهيئة جديدة عليّ تمامًا.

رغم ذلك، كانت أيام الكآبة المسالمة هذه نادرة الحدوث، فغالبًا ما كانت تنقطع بزخّات من الانفعالات التي تقودني في قارب متهالك في وسط بحر عاصف أبحث فيه عن كهف للاختباء، ولكن الرياح كانت تهب من الميناء الذي خرجتُ منه دفعتني بعيدًا حتى تناثرت أشلاء القارب وهلكتُ بعد أن مرّت العاصفة وهدأ البحر ظاهريًا. لا أعرف إن كان بإمكاني وصف هذه المشاعر: أحيانًا ما كان يكشف عنها بكلمة أو إيماءة، ثم ينزوي إلى غرفته وأزحف أنا ناحيتها إلى أقرب نقطة تسمح بها شجاعتي وأنصت بخوف إلى كل صوت، وإلى كل صمت مفاجئ يرعبني أكثر -رعب من ماذا؟ لا أعرف، ولكنه كان شعورًا يملؤه الخوف.

كان ذلك في نهاية يوم عاصف عندما نظر إليّ بعينين مشتعلتين كالبرق - وبصوته الحاد والمنكسر بدا أنه غير قادر على التعبير عن انفعالاته، لدرجة أنه في المساء عندما كنت بمفردي انضم إليّ بهيئة هادئة، ولم يلاحظ دموعي التي أسرعتُ بتجفيفها مع اقترابه، وأخبرني أنه ينوي خلال ثلاثة أيام أن ننتقل إلى ضيعته في يوركشاير، طالبًا منّي الاستعداد. ثم غادرني كما لو كان يخشى أسئلتي.

هذا التصميم من جانبه كان مفاجئًا لي حقًّا. فقد كانت الضيعة التي تحدث عنها مهد طفولته وبالقرب منها عاشت أمي في صباها، كانت موطن مغامرات حبّهما الشاب والمكان الذي عاشا فيه بعد زواجهما، في أيام السعادة كان أبي يخبرني كثيرًا أنها مهما بدا متحررًا

t.me/qurssan

من حزن ترمّله، وخاليًا من الذكريات المريرة في مكان آخر، فإنه لن يجرؤ على العودة أبدًا إلى البقعة التي شهد فيها بهجة صحبتها، ولن يتمالك نفسه عندما يرى الغرفات التي عاشا فيها معًا منذ سنوات طويلة، أو مماشيها المفضلة والحدائق التي وجدت البهجة في الاعتناء بزهورها. والآن وهو يعاني من حزن حاد يقرر الاستغراق في حزن أكبر، ويسعى للانغماس في انفعالات أكبر من التي مزقته بالفعل. أصابتني الحيرة والفضول الشديد لمعرفة ما ينبئ عنه هذا، آه، وإلى ماذا سيودي بنا هذا إلا إلى الخراب!

خلال هذه الفترة لم أكن أرى أبي كثيرًا، ولكنه بدا أكثر هدوءًا وليس أقل تعاسةً مما مضى. في صباح اليوم الثالث أبلغني أنه قرر الذهاب إلى يوركاشير بمفرده أولاً، وأن أتبعه في غضون أسبوعين ما لم أتلقَّ منه أي أخبار في تلك الفترة بعكس هذا الترتيب. غادرني في اليوم نفسه، وبعدها بأربعة أيام تلقيتُ خطابًا من خادمه يخبرني أن ألتحق به بأسرع ما يمكن. بعد السفر لنهار وليلة وصلتُ بقلب يملؤه القلق، والأمل رغم ذلك، وإلا فلماذا يرسل إليّ إن لم يكن فقط من أجل تجنبي ومعاملتي بكراهية بادية كما كان الأمر معه في لندن؟ قابلته على مسافة ثلاثين ميلاً من قصرنا. كانت هيئته حزينة، فقد بدا للحظة سعيدًا لرؤيتي ثم راجع نفسه كما لو كان غير راغبًا في الكشف عن مشاعره. كان صامتًا خلال رحلته، ومع ذلك كانت تصرفاته معي أكثر عطفًا مما قبل وظننتُ أنني رأيتُ عذوبةً في عينيه منحتني أملاً.

عندما وصلنا، بعد راحة قصيرة، قادني عبر المنزل ودلني على الغرفات التي سكنتها أمي. رغم انقضاء أكثر من ستة عشر عامًا على وفاتها لم يتغيّر شيء، صندوق العمل الخاص بها، ومنضدة الكتابة ما زالت في مكانها، وفي غرفتها يستلقي كتاب مفتوح على الطاولة حيث تركته. أشار أبي إلى هذه الظروف بسحنة جادة لا تتغير، وأحيانًا

t.me/qurssan

فقط كان يلقي نظراته عليّ بعينيه العميقتين والسائلتين، كان هناك شيء ما غريب ومريع في نظرته لي، ورغمًا عني بكيت، ورغم أنه لم يحاول مواساتي رأيت شفتيه ترتعشان وعضلات وجهه تتشنج.

تمشينا عبر الحدائق وذات مساء عندما حان موعد نومي طلب مني البقاء والقراءة له، وقال أولاً: "عندما كنتُ هنا آخر مرة قرأت لي والدتك دانتي، ستقرئين من حيث توقفتُ". وبعدها فورًا قال لي: "لا، لا يجب عليكِ، عليكِ ألّا تقرئي دانتي. اختاري أي كتاب آخر تشائين." اخترتُ سبنسر وقرأت سقوط سير جويو إلى ردهات الجشع، وأنصتَ إليّ بعينين مثبتتين عليّ في صمت عميق حزين.

أخبرني الخادم في الصباح التالي أن أبي كان عند وصوله في حالة مزاجية مريعة: قضى الليلة الأولى في الحديقة مستلقيًا على العشب الرطب، لم يستغرق في النوم ولكن في تأوه أبدي. "واحسرتاه!"، أخبرني الرجل العجوز بهذه القصة وعيناه تمتلئان بالدموع، "يعتصر قلبي أن أرى سيدي في هذه الحالة: عندما سمعتُ أنه قادم إلى هنا في صحبتك، يا سيدتي الشابة، اعتقدتُ أننا سنعرف الأيام السعيدة مرةً أخرى كما كانت الحال خلال الحياة القصيرة لسيدتي الأم - ولكنها سعادة لا تليق بنا نحن الكائنات البائسة المولودة للدموع - ولهذا غابتْ عنّا سريعًا قبل الأوان، كانت أجمل وأروع مما نستحق. اعتقدنا جميعًا أن يوم زواج سيدي بها هو أسعد الأيام: عرفتها عندما كانت طفلة، ومنحتني الحنو والعطف في أيام سيدتي الكبيرة - تشبهينها بعض الشيء رغم أنك تشبهين سيدي أكثر - ولكن هل هو على هذه الحالة منذ عودته؟ انقلبتْ بهجتي إلى حزن بالكامل عندما رأيته بتلك السحنة السوداوية وهو يدخل عبر هذه الأبواب كما لو كان في اليوم التالي لجنازة سيدي - بدا أنه يتعافى قليلاً بعد أن طلب مني الكتابة إليكِ - ولكنه من المريع رغم أي شيء رؤيته تعيسًا

t.me/qurssan

هكـذا". كانـت هـذه مشـاعر خـادم عجـوز، مخلـص: فـما بالـك بمشـاعر ابنـة حنـون. واحسرتـاه! حتـى حينهـا أوشـك قلبـي عـلى الانكسـار تمامًـا.

قضينـا شـهرين معًـا في هـذا المنـزل. وقـضى أبي الجـزء الأكـبر مـن وقتـه معـي، يصاحبنـي في تمشـياتي، يسـتمع إلى موسـيقاي، وينحنـي عـليّ عندمـا أقـرأ أو أرسـم. عندمـا كنـا نتحـدث كان سـلوكه معـي بـاردًا ومتكلفًـا، بـدا أن عينيـه فقـط هـما اللتـان تتحدثـان، ورأيـتُ الحـزن في اسـتدارة لمعتهـما المكتملـة السـوداء نحـوي. شيء مـا كان في تلـك المـدارات المظلمـة العميقة، مائـع وكثيـف جـدًّا، لدرجـة أنـه حتـى في السـعادة لم أكـن لأسـتطيع أن أواجـه هـذا اللمعـان المكتمـل خشـية أن يلتهمنـي. إلا أن ذلـك كان بدموع عذبـة، وجـدت الآن عمـق محنتهـا في دعوتهـا الرقيقـة التـي سـكنتْ قلبـي بتعاطـف، بـدت كأنهـا تنشـد السـلام مـن أجـلي، بقلـب صابـر عـلى المعاناة مـن أجلـه، وبحثًـا عـن التعاطـف، ومـع ذلـك إنـكار أبـدي للـذات. فقـط عندمـا يكـون متغيّبًـا عنـي يقـع فريسـةً لانفعالاتـه، - يقبـض عـلى يديـه - ويعقـد حاجبيـه - وتمـلأ عينيـه نظـرةٌ تطلـب المـوت ليأسـه الجامـح، مسـتنزفًا بالكامـل حتـى أنضـم إليـه ليبـدأ في اسـتجماع نفسـه.

عندمـا كنـا في لنـدن، كانـت هنـاك قسـوة و تجهـم في حزنـه اختفيـا الآن تمامًـا. هنـاك كنـتُ أنكمـش وأتحاشـاه، ولكـن هنـا لا أرغـب إلا في أن أكـون معـه لعـلي أمنحـه سـلام النفـس. عندمـا يكـون صامتًـا كنـت أحـاول تشـتيت انتباهـه وعندمـا أنجـح أحيانًـا في التسـلل إلى نفسـه في أثنـاء جيشـان انفعالاتـه أبـكي ولكـن لا أرغـب في تركـه. ومـع ذلـك كان يعـاني من حـزن يمتلـئ بالخـوف، في أثنـاء النهـار كان أكـثر هـدوءًا، ولكـن في الليـل، عندمـا لا أتمكـن مـن الوجـود معـه يبـدو أنـه يستسـلم تمامًـا لحزنـه: غالبًـا مـا كان يقـضي لياليـه إمّـا في الطابـق الأرضي حيـث غرفـة أمـي، وإمـا في الحديقـة، وعندمـا يـراني في الصبـاح يظهـر بهيئتـه التـي اسـتنزفت في حـزنٍ حـاد طـوال الليـل، مـع فتـور همتـه إلى درجـة المـوت، ومراقباتـه الليليـة الباكيـة، ولكـن خـلال ذلـك الوقـت كلـه لم ينطـق بـأي كلمـة يمكننـي

t.me/qurssan

من خلالها تخمين سبب تعاسته. وإذا جرؤت على التساؤل يغادرني على الفور أو يضغط بإصبعه على شفتيه، وبنظرة مستنكرة لا أستطيع مقاومتها، يستدير متحاشيًا إياي. وإذا بكيتُ يتطلع إليّ في صمت، ورغم اختفاء القسوة من سلوكه حينها فإنه يرفض أي تربيتة على كتفي، وإن كان سلوكه هذا لا تعوزه الرقة.

بدا أنه ينطوي على حزن رقيق وانفعالات أكثر رقة كما لو كان حزنًا للنجاة من اليأس - أو سعيًا بكل الطرق لرعاية سوداويته واحتضانها كسلاح ضد انفعال أكثر شراسة. وكثيرًا ما كان يتردد على المماشي التي كانت مفضلة له عندما كان هو وأمّي يتجوّلان ويتحدثان عن الحب والسعادة، جمع كل أثر بقي منها، ودائمًا ما كان يجلس قبالة صورتها المعلّقة في الغرفة مثبّتًا عليها نظرة يأس - وكل هذا كان يتم بصمت مريع وغامض. وعندما تغلبه انفعالاته يحبس نفسه في غرفته، وفي الليل عندما يتجول بسبب الأرق عبر المنزل، يكون كل مخلوق آخر نائمًا.

يمكن بسهولة تخيّل القلق الذي أصابني بسبب محاولة تخمين سبب حزنه. والإجابة التي بدت لي الأكثر قبولاً هي أنه في أثناء إقامته في لندن وقع في حب شخص غير جدير بهذا الحب، وأن انفعاله طغى عليه رغم أنه غير راضٍ عنه: أحبني كثيرًا لدرجة عجزه عن التضحية بي بسبب هذا المزاج، والآن مع مجيئه إلى هذا المنزل، وإحيائه لذكرى أمي التي أحبها بجنون، ظنّ أن باستطاعته إخماد ذلك الانفعال. كان هذا ممكنًا ولكنه مجرد حدس لا أساس له من الحقيقة. هل يوجد شعور بالذنب في المسألة؟ كان نُبلاً ورُقيًّا منه ألا يقوم بأي أمر لا يقبله ضميره، لا أعرف بعد ما هي الجريمة في الشعور على نحو لا إرادي، وبالتالي عزوتُ وثباته الهائجة ونظراته المتجهمة بالكامل إلى الصراعات في عقله وليس لسبب أن أيًّا منها يرجع إلى أسوأ شيطان على الإطلاق - شيطان الندم.

t.me/qurssan

رغم ذلك، لن أتملّق نفسي بأن كل هذا كان ليمرّ وينتهي. كانت نوبات انفعاله المفاجئة مريعةً ولكن روحه حملته عبرها منتصرًا، رغم أنه أصبح مدمّرًا تقريبًا بسبب هذا الانتصار، ولكنه كان لينتصر في النهاية على أية حال لو لم أقم أنا، الحمقاء والبائسة، باستعجاله حتى لم يعد هناك أي أمل أو إمكانية للعودة. كان تعجلي سببًا في منح الانتصار في هذه المعركة المريعة للعدو الذي انتصر على أبي في سقوطه وتلاشيه. أنا، بمفردي، كنت السبب في هزيمته ولكني دفعت الثمن المريع. قلتُ لنفسي، لأدعه يستمتع بتعاطفي وبالتالي تنتهي هذه الصراعات. لأدعه يُسِرّ بمأساته إلى قلب آخر ومن ثمّ تتلاشى وطأتها بعض الشيء. سأستميله إلى جانبي، لن يحجب حزنه عنّي وعندما أعرف سرّه سأسكب الترياق في روحه وأستمتع مرة أخرى بالبهجة المثيرة للنظر إلى ابتسامته، لرؤية عينيه مرة أخرى تسكبان شعاع البهجة، وإن لم يكن فعلى الأقل شعاع الحب والعرفان الرقيق. قلت لنفسي، هذا ما سأفعله. وبعد أن أنجزتُ نصف المهمة، اكتشفت سرّه وخسر كلانا الآخر للأبد.

t.me/qurssan

الفصل الخامس

بعد مرور سنة تقريبًا من عودة أبي، وبعد أن أوشكت الفصول على إنهاء دورتها - نحن الآن في نهاية مايو، الغابات تحت غطاء من الخضرة النضرة، والرائحة الحلوة للعشب المجزوز حديثًا تملأ الحقول. اعتقدتُ أن الهواء المعتدل والوجه الجميل للطبيعة قد يساعدني في إلهام أبي أحاسيس عذبة، ومنحه مشاعر رقيقة من السلام والحب تمهيدًا للثقة التي أنوي أن أنتزعها منه.

اخترت لذلك أمسية أحد هذه الأيام لبدء محاولتي. دعوته للسير معي، وقدته إلى غابة مجاورة من أشجار الزان تحمينا أوراقها من شعاع الشمس المائل المغشي للأعين - بعد السير لبعض الوقت في صمت جلستُ معه على صخرة مغطاة بالطحالب - يبدو هذا غريبًا ولكن حتى الآن ما زال ذلك المكان يتجسّد أمامي- الجذوع الناعمة والرقيقة تلتف حولها أوراق اللبلاب التي تتناقض أوراقها اللامعة ذات الخضرة الداكنة مع اللحاء الأبيض للبراعم الصغيرة التي نمت من جذع الشجرة الأم - والعشب القصير مختلط بالطحالب ومغطى جزئيًا

t.me/qurssan

بـأوراق ميتـة دفعتهـا الريـاح مـن الخريـف الفائـت وتجمّعـت في تـلال صغـيرة - كانـت هنـاك بعـض بقايـا أغصـان طحلبيـة حولنـا - والأوراق تتحـرك بخفـة بفعـل النسـيم وعـبر تلـك المظلـة الأخـضر تمكـن رؤيـة السـماء الزرقـاء البرّاقـة - مـع حلـول المسـاء بـدأت الجـذوع البعيـدة في الاحمـرار بفعـل ضـوء الشـمس الغاربـة وخفتـت الريـاح بالكامـل، وعـبرت الطيـور فوقنـا إلى مهجعهـا الليـلي.

حسـنًا! جلسـنا في ذلـك المـكان، وعندمـا تسـتمتع إلى كل ذلـك المـاضي - إلى كل تلـك الأحـداث المريعـة التـي مزّقـت روحنـا حتـى في تلـك البقعـة الهادئـة، التـي لـولا الانفعـالات الغامضـة لكانـت لتعتـبر جنّـة بالنسـبة إلينـا، فلـن تتعجـب مـن أننـي أتذكرهـا كـما لـو كنـت أنظـرُ إليهـا عـلى اعتبارهـا أمـلاً، يمنحنـي هدوؤهـا السـكينة، ويلهمنـي ليـس فقط الشـجاعة ولكـن كذلـك الكلـمات المقنِعـة. رأيـتُ كل هـذه الأشـياء بعينـي، ورأيتهـا في عقـلي بحماقـة، في حـين كنـتُ أسـتجمع شـجاعتي لترتيـب أفـكاري وبـدء محاولتـي. ازدادت ضربـات قلبـي وأنـا أوشـك عـلى التحـدث إليـه، لأننـي كنـتُ مصممـة عـلى ألّا يصـدني ولكنـي ارتعشـت لتخيّـل تأثـير كلـماتي عليـه. في النهايـة، بـدأتُ في التحـدث إليـه بعـد كل هـذا الـتردد.

"أبي العزيـز، أتمنـى أن أجـد في عينيـك عـذرًا تجـاه جـرأتي عـلى التحـدث إليـك، بحـق عطفـك ناحيتـي، ومحبتـك لي - محبتـك البالغـة - التـي حملتهـا ناحيتـي عنـد عودتـك أول مـرة، وبحـق أقـل عاطفـة ووجـدان تجـاه ابنتـك، والحريـة الجديـرة بـين الأصدقـاء والقرنـاء. ولكـن اعـذرني، أسـتعطفك أن تنصـت إليّ: لا تعـرض عنـي، كـن صبـورًا معـي، يمكنـك بسـهولة ترويعـي وإسـكاتي، ولكـن قلبـي عـلى وشـك الانفجار، ولا أسـتطيع بـأي حـال أن أحتمـل للحظـة واحـدة أخـرى عـذاب الشـك الـذي قتلنـي طـوال الأشـهر الأربعـة الماضيـة.

t.me/qurssan

"استمع إليّ، صديقي العزيز، واسمح لي أن أنال ثقتك. هل انقضت للأبد أيام الحب المتبادل التي مرّت من أمامي كالحلم؟ واحسرتاه! في داخلك سر حزين يدمّر كلينا: ولكن عليك أن تسمح لي باقتناص هذا السر من داخلك. أخبرني، هل باستطاعتي أن أقوم بأي شيء؟ تعلم جيدًا أنه لا توجد على وجه الأرض تضحية أرفض بذلها، أو معاناة أمرّ بها فقط على أمل أن أمنحك السلام؟ ولكن إن كان أيّ سعي من ناحيتي لن يمنحك السعادة، فاسمح لي على الأقل أن أعرف سر حزنك، وأنا على يقين بأن حبي الجارف وتعاطفي العميق سيخفف من يأسك.

"أخشى أن أتكلم بطريقة متكلفة: قلبي يفيض برغبة جامحة لمنح أفكارك ونظراتك السلام والسكينة من جديد، ولكني أخاف أن أضاعف من حزنك، أن أزيد من غضبك ونفورك وهو ما يعني الموت بالنسبة إليّ. لا تجعل إذًا عينيك مسمّرتين على الأرض بهذا الشكل، ارفعهما تجاهي حتى تمكنني قراءة روحك فيهما: تحدث إليّ، واعذر جرأتي. واحسرتاه! أنا أتعس أهل الأرض!"

انقطعت أنفاسي نتيجة انفعالي، وتوقفتُ لبرهة مثبتةً عينيّ المخلصتين على أبي، بعد أن دفعت عنها الدموع المتطفلة التي أوشكت على إطفائها. لم يرفع عينيه نحوي، ولكن بعد صمت قصير أجابني بصوت خافت: "أنتِ بالفعل متجرئة يا ماتيلدا، متجرئة ومندفعة جدًّا. في قلب إنسان مثلي تدور أفكار سرية، وعذابات كامنة لا يجب عليكِ السعي لكشفها. لا يمكنني أن أصف لك كم يزيد من حزني أن أعرف أنني أسبب لكِ القلق، ولكن هذا سيمرّ، وآمل أننا قريبًا سنعود إلى ما كنّا عليه منذ بضعة أشهر. توقفي عن جزعك وإلّا فقد تفسدين ما تحاولين إصلاحه. لا تتحدثي إليّ مرةً أخرى بهذه الطريقة، ولكن انتظري بصبر خانع انتهاء ما يدور من حولك".

t.me/qurssan

أجبتـه بانفعـال: "أوه، نعـم! سـأكون صبـورة جـدًّا، لـن أندفـع أو أفـترض الظنـون مـرةً أخـرى، سـأراقب العذابـات، والدمـوع، واليـأس في قلـب أبي، صديقـي الوحيـد، أمـلي، ملجئـي، سـأراقبها بذراعـين مطويتـين وعينـين كاسـفتين. أنـت لا تتعامـل معـي بسـلامة نيـة، ليـس صحيحًـا مـا قلتـه، لـن ينتهـي هـذا قريبًـا، سيسـتمر للأبـد إذا لم تقـرر التحـدث معـي، والاعـتراف بمعانـاتي.

"أبي العزيـز جـدًّا، اعطـف عـليّ واعـذرني: أسـتعطفك ألّا تقـودني إلى اليـأس، يجـب ألّا تعـرض عنـي، في داخلـك أمـرٌ مـا عليـكَ أن تخـبرني بـه حتـى وإن كانـت معرفتـي بـه سـتخلق مصـدرًا لعذابـاتي. أسـألك راجيـةً إن كنـت أنـا مصـدر تعاسـتك بـأي نحـو، ألا تـرى الدمـوع التـي أناضـل بـلا جـدوى في كبحهـا - تسـمع صـوتي المنكسـر بالنحيـب ولا يحـركك ذلـك بـأي نحـو- ألا تشـعر بارتعاشـة يـديّ: قلبـي مسـتغرق بكاملـه في الكلـمات التـي أنطقهـا وعليـكَ ألّا تحـاول إسـكاتي ببضـع كلـمات لا معنـى: عذابـات شـكوكي تدفعنـي للحديـث، وعليـك أن تجيبنـي. ألتمـس منـك، بحـق حبـك لي في مـا مـضى، فقـد ضـاع الآن، أناشـدك أن تجيبنـي عـلى هـذا السـؤال: هـل أنـا سـبب حزنـك؟"

رفـع عينيـه عـن الأرض ونظـر بعيـدًا عنـي رغـم ذلـك، ثـم قـال: "تحـت ضغـط التماسـك هـذا سـأجيبك عـلى سـؤالك المتسـرع. نعـم، أنـتِ السـبب الوحيـد والمـؤلم لـكل مـا أعانيـه، ومـا سـأعانيه حتـمًا حتـى المـمات. والآن، احـترسي! اصمتـي! لا تدفعينـي إلى تدمـيرك. فقـد ضربتنـي العاصفـة، وانتزعـت جـذوري، وخلفتنـي وراءهـا ضائعًـا: ولكـن أنـتِ باسـتطاعتكِ مقاومتهـا، مـا زلـتِ شـابة ومـا زالـت انفعالاتـكِ هادئـة. كلمـة واحـدة أنطقهـا تجعـل دمـاري يصيبـك أنـتِ أيضًـا، وهـي كلمـة تتأرجـح عـلى أطـراف شـفتي. أوه! إنهـا هـوّة مخيفـة، ولكـن أناشـدك أن تحـترسي!"

t.me/qurssan

صحتُ قائلةً: "آه، يا صديقي العزيز! لا تخف! انطق تلك الكلمة، حتى تجلب لنا السلام، وليس الموت. وإن كانت هناك هوّة سحيقة فإن حبنا المتبادل سيمنحنا أجنحة لعبورها، وسنجد الأزهار، والسكون، والابتهاج على الجانب الآخر". ألقيتُ بنفسي على قدميه، وتناولت يديه، "نعم، تحدث وسنكون سعيدين، ستتلاشى الشكوك المرعبة، ثق بي، وستهدئ عاطفتي من حزنك، انطق تلك الكلمة وستكون كل الأخطار شيئًا من الماضي، ويعود الحب بيننا كما كان من قبل، وللأبد".

انتزع يديه من يديّ، ونهض باضطراب عنيف: "ماذا تقصدين؟ أنتِ لا تدركين ماذا تقصدين. لماذا تأتين بي إلى هذه الغابة وتصبّين عليّ العذاب وتحاولين إغوائي وقتلي؟ سيكون الأمر أكثر سعادة بالنسبة إليكِ، ولكن بالنسبة إليّ فإن نجحتِ بفضولك الهائج في تمزيق قلبي وإخراجه من صدري وحاولتِ قراءة أسراره فإن دماء الحياة ستتساقط وتتلاشى منه. ولذلك فإن عزاءكِ لي سيجعلني لا شيء - لا أستطيع تحمل كلماتك، وقريبًا سأصاب بالجنون على يديكِ، الجنون المطلق، وحينها سأنطق بكلمات غريبة، وستصدقينها، وسيضيع كلانا بعدها للأبد. أقول لكِ إنني على نهاية حافة الجنون، لماذا، يا فتاتي قاسية القلب، تدفعينني إلى ذلك؟ ستندمين وسأموت".

عندما أعدتُ كلماته تعجبتُ من حماقتي العنيدة، بالكاد أدركتُ المشاعر التي استولتْ عليّ. أعتقد أنه مع تصميمي على ألّا يعرض عني انتقلتُ مباشرةً إلى غايتي من دون وزن ردوده على نحو جيد: كنتُ فريسةً لانفعالاتي ودفعته بلا مبالاة ثائرة إلى هوة سحيقة كان يحاول تجنبها - أجبته على كلماته المريعة: "صحيح أنك ستملؤني بالرعب، أبي العزيز، ولكنك فقط ستزيد من إصراري على وضع نهايةً لهذا الشك. لن أؤجل هذه المسألة إذًا: تظن أن بإمكاني أن أعيش أيامي في هذا الخوف - السيف مغروز في قلبي ولا يحميني من الموت

t.me/qurssan

بسببه إلا شعرة - كلمة! - أطالب بتلك الكلمة المريعة، حتى وإن كانت وميضًا من البرق سيصبني بالدمار، انطقها.

"واحسرتاه! واحسرتاه! إلى ماذا أصبح مآلي؟ منذ أشهر قليلة فحسب كنت أظنّ أنني بمثابة العالم كله بالنسبة إليك، ولم تكن على وجه الأرض أي سعادة أو حزن يشارك محبوبتك ماتيلدا قلبك - طفلتك: ذلك الزمن السعيد قد انقضى، وأكثر ما يخيفني في هذا العالم في طريقه لأن يصيبني. في خضّم اليأس الذي يملأ قلبي رأيتُ ما لا يمكنك إخفاؤه: أنك لم تعد تحبني. أناشدك يا أبي، ألم تستولِ على قلبك عاطفة غير طبيعية! ألستُ أنا الدودة الأكثر بؤسًا التي تنخر في قلبك؟ ألستُ أحتضن ركبتين، وتعرض عني بكل قسوة؟ أعرف ذلك - أراه أمامي - أنك تبغضني!"

وقعتُ فريسةً لانفعال هائج، وبعد أن نهضتُ من فوق قدميه اللتين كنت مستلقية عليهما، استندتُ إلى شجرة، ورفعتُ عينيّ بجنون إلى السماء. بدأ في إجابتي بعنف: "نعم، نعم، أنا أبغضك! أنتِ مصدر خرابي واشمئزازي والسمّ الذي يجري في عروقي! أوه! لا!" ثم تبدلت نبرته، وثبتت عينيه عليّ بتعبير احتوى كل عصب وكل جزء من كياني - "أنتِ لستِ شيئًا من كل هذا، أنتِ النور بالنسبة إليّ، حياتي الوحيدة. - ابنتي، أحبك!" ماتت الكلمات الأخيرة هذه وتلاشت في وسط همس خشن، ولكنني سمعتها وغرقت على الأرض، مغطيةً وجهي وأكاد أموت من فرط المرض والخوف: عرق بارد يغطي جبيني، وكل جزء في جسمي مرتعش - ولكنه تابع، مصفقًا بين يديه بإيماءة ثائرة:

"والآن وقد اندفعتُ من أعلى الصخرة إلى القاع! الآن وقد ألقيتُ بنفسي إلى الهوّة المرعبة! انتهى الخطر، ما زالتْ حيّة! أوه! ماتيلدا، ارفعي هاتين العينين العزيزتين اللتين أحيا على نورهما. دعيني أسمع

t.me/qurssan

النغـمات العذبـة لصوتـك الحبيـب الغـارق في السـلام والهـدوء. رغـم وحشـيتي، مـا زلـتِ أنـتِ، كـما كنـتِ دومًـا، محبوبـة وجميلـة بشـكل لا يوصـف. لا أعـرف مـا أصبحـتُ عليـه منـذ هـذه اللحظـة، ربمـا تغـيّرت ملامحـي كـما حـدث مـع المـلاك السـاقط. أصبحـت عـلى يقـين بـأن روحًـا جديـدة خلقـت داخـلي، وأن دمـائي تثـور في عروقـي: احترقـتُ بالحمّـى. ولكنهـا كانـت لحظـات عزيـزة، فرغـم أننـي أصبحـتُ شـيطانًا، هـا هـي ماتيلـدا أمامـي أحبّهـا كـما لم أحـب أحـدًا مـن قبـل: وهـي تعـرف ذلـك الآن، تنصـت إلى هـذه الكلـمات التـي اعتقـدتُ أنهـا، في هوجـة حماقتـي، سـتودي بهـا إلى المـوت. لا تبـالي، انتهـى الجانـب الأسـوأ: لا مزيـد مـن الأحـزان أو الدمـوع أو اليـأس، ألم تكـن هـذه هـي الكلـمات التـي نطقـتِ بهـا؟- لقـد قفزنـا إلى الهـوّة التـي أخبرتُـك عنهـا، والآن، انتبهـي إلى حديثـي، علينـا أن نبحـث عـن الأزهـار والخـضرة والبهجـة، أم أنـه لا يوجـد سـوى الجحيـم والنـار والعذابـات؟ أوه! يـا محبوبتـي، ألقـتْ بي الريـح بعيـدًا، لم أعـد قـادرًا عـلى تمالـك نفـسي، حتـمًا إنـه المـوت الـذي يتكلمـون عنـه. دعينـي أضـع رأسي عـلى قلبـك، لأمـوت بـين ذراعيـكِ!" - تهـاوى إلى الأرض في إغـماءة وأنـا أحملـق فيـه بيـأس وقـد غادرتنـي الحيـاة تقريبًـا.

نعـم قتلنـي باليـأس، للمـرة الأولى يسـتولي عـليّ ذلـك الشـبح، المـرة الأولى والوحيـدة، فهـو لم يغـادرني بعدهـا أبـدًا - بعـد اللحظـات الأولى مـن العـذاب الأخـرى شـعرتُ كـما لـو أن أنيابـه تخـترق قلبـي: مزّقـتُ شـعري، واسـتغرقتُ في هذيـان بـلا معنـى، في لحظـة بدافـع مـن الشـفقة عـلى معاناتـه وددتُ أن أحتضـن أبي بـين ذراعـي، ولكنّـي بعـد أن نظـرتُ إليـه برعـب نبذتـه بقدمـي، شـعرتُ كـما لـو أن حيـةً قـد لدغتنـي، كـما لـو أن قطيعًـا مـن العقـارب يقـودني -آه! إلى أيـن -إلى أيـن؟

حسـنًا، لم يكـن هـذا ليسـتمر. فكـرة واحـدة اندفعـتْ إلى عقـلي، ألّا أتحـدث إليـه مـرةً أخـرى أبـدًا. بعـد أن سـيطرَ عـليّ هـذا الاقتنـاع (أم عليـه؟) ذابـت روحـي في بحـر مـن الرقـة والحـب - ألقيـتُ عليـه نظـرة

t.me/qurssan

وداع أخيرة - مستلقيًا بلا شعور - وقد أغلق عينيه، وخدّاه شاحبان كالموت. وفوقنا، تلقي أوراق غابة الزان بظلالها المتذبذبة على وجهه، وتتماوج بلحن جنائزي من فوقه - رأيتُ كل هذه الأشياء وقلت، "أوه، هذا هو قبره!" ثم بكيت بصوت عالٍ ورفعتُ عينيّ إلى السماء متضرعةً من أجل مهلة ليأسي وراحة من معاناتي التي لا توصف - والدموع التي انسالت في تيار دافئ ومداوٍ أزالت الحمل الذي ضغط على قلبي حتى حافة الجنون. بكيتُ لبرهة طويلة حتى رأيته على وشك النهوض، وعندها هجم علينا الرعب والحزن مرةً أخرى، وارتد تيار مشاعري إلى حالته الأولى، بسبب الرعب لم أتمكن من الوقوف ساكنة - انتفضتُ ولذت بالفرار، بسرعة بأجنحة، عبر مسارات الغابة وعبر الحقول حتى وصلتُ إلى منزلنا على وشك الموت، وفور أن طلبتُ من الخدم البحث عن أبي في البقعة التي تركته فيها، اعتزلتُ في غرفتي وأغلقتُ على نفسي الباب.

t.me/qurssan

الفصل السادس

كانت غرفتي تقع في بقعة هادئة بعيدة من المنزل وتطل على الحديقة بحيث لا يصل إليها صوت القاطنين الآخرين، وهنا في عزلتي المطلقة بكيتُ لساعات طويلة. عندما جاء الخادم لسؤالي عما إذا كنتُ سأتناول الطعام، علمتُ منه أن أبي قد عاد وأنه بحالة جيدة ظاهريًا. أراحني هذا من حمل القلق، ومع ذلك لم أتوقف عن البكاء بمرارة. في البداية، مع شعوري بتناقض ذكرى السعادة البائدة مع يأسي الحاضر، تخليتُ عن الارتياح مقابل ضيق الصدر الذي شعرتُ به نتيجة الكلمات والتأوهات وتنهدات القلب: ولكن طبيعتي أصبحت منهكة، وهذا الحزن الأكثر شدةً كان سببًا في تدفق منفعل وصامت من الدموع، بدت روحي بكاملها وقد ذابت فيها. لم أعتصر يديّ، أو أمزّق شعري، أو أنطق باندهاشات جامحة، ولكن تمامًا كما في لوحة بوكاتشيو التي تصف الحزن الهادئ والعنيف لسيجزموندا مستلقية

t.me/qurssan

على قلب جيزكاردو[1]، جلستُ ويداي مطويتان، ساكبةً بصمت تيارًا لا ينتهي من الدموع. بهذا النحو كان عمق انفعالي ولكنّي لم أشعر بأي شيء تجاه ما كان السبب في محنتي، بل إن أفكاري هامت في أشياء أخرى لا معنى لها، ورغم أنني لم أحرك ذراعًا أو خلجةً من وجهي استمرت دموعي في الانسكاب، حتى، كما لو كانت النوافير قد نضبت أخيرًا، تلاشت تدريجيًا، وعدتُ إلى الحياة كما لو كنتُ أستيقظ من الحلم.

بعد أن توقفت عن البكاء عاد إليّ إدراكي وذاكرتي، وبدأت بهدوء في التفكير في ما حدث، وكيف لي أن أتصرف - لم يمر سوى ساعات معدودة ورغم ذلك كانت ثورة هائلة قد وقعت داخلي - كانت السنون قد فعلت فعلتها منذ الصباح، أصبح أبي ميتًا بالنسبة إليّ، وشعرتُ لوهلة كأنه يستلقي في الكفن بشعره الأبيض وأنا - وقد بدأ شبابي في التلاشي، أبكي على تفسّخه المحتوم. ولكن الحقيقة كانت بخلاف ذلك، فما زلتُ شابة، أوه! شابة جدًا، ولم يكن هو ميتًا بالنسبة إلى الآخرين، ولكن أنا، الأكثر بؤسًا، حتمًا لن أتحدث إليه أو أراه مرةً أخرى. يتحتم عليّ أن أبتعد عنه بأكبر سرعة ممكنة تليق بهروبي من عدوي الأكبر، في العزلة أو في المدينة يتحتّم عليّ ألّا أنظر إليه أبدًا. أصابني هذا التفكير بكرب ولهاث، وبضغطهِ على خيالي أصبحتُ عاجزةً لفترة من الوقت عن متابعة تيار أفكاري بأي طريقة. وبعدها وللأبد، أعتقد أنني سأعيش في أكثر أشكال العزلة وحشةً. سأبتعد إلى أوروبا وأصبح راهبة، ليس من أجل الدين، وليس لأنني كاثوليكية، ولكن من أجل أن أنغلق للأبد عن العالم. هناك

---

(1) اللوحة للرسام الإنجليزي وليام هوجارث مستوحاة من شخصية سيجزموندا الرئيسة في رواية ديكاميرون لجيوفاني بوكاتشيو، واللوحة تصورها مستلقيةً على قلب زوجها الموضوع في كأس من الذهب - المترجم

t.me/qurssan

سأجد العزلة التي سأتفرّغ فيها للبكاء بعد أن تنقطع عني أصوات الحياة للأبد.

ولكن ماذا بشأن أبي، أبي الحبيب البائس؟ هل سيموت؟ هل سينتصر يومًا على الانفعال الهائج الذي يسيطر عليه بلا رحمة؟ قد يعجز عن ذلك حتى تمر سنوات عديدة وطويلة وبعد أن يعتصر العمر المشاعر الحارقة التي يعانيها الآن، هل سيكون حينها أبي مرةً أخرى؟ انزاح التجهم عن جبيني بسبب هذا التفكير، وأصبحتُ قادرة (وبكيتُ بسبب ذلك) على الشعور بنصف ابتسامة سوداوية تتولد على شفتي وتخلقُ تعبيرًا عن المعاناة: خاطرتُ بالانغماس في آمال أفضل من أجل مستقبل أبي، يتحتم أن تمر سنوات عديدة بخفة وجناحين من الأمل، وحتى وإن مرّت بتثاقل، فستنتهي ولن أفقد أبي للأبد. ليقضِ ستة عشر عامًا أخرى من التجوال الموحش والشلالات الهائلة ومن مناخٍ لآخر: ليجرّب مرة أخرى خطرًا داهمًا وشدائد مهلكة للروح، لتحرق شمس الخريف مرةً أخرى خديّه المتوهجين بالانفعال ولتسقط أمطار الليالي الباردة عليه عسى أن تبرد دماءه.

إلى هذه الحياة، أبي البائس، أكرّسك! - ارحل! - لتقضي أيامك مع المتوحشين، ولياليك تحت قوس السماء! لتذبل أطراف ويبرد قلبك، حتى يموت الشباب وينتهي داخلك! ليكن شعرك أبيض كالثلج، ومشيتك مرتعشة وصوتك فاقدًا لنغماته اللينة! لتنطفئ نظرة عينيك العذبة، ثم عد إليّ، عد إلى ماتيلدا، طفلتك، التي سترتمي حينها بين ذراعيك المحبوبتين، في حين يخفق قلبها بعاطفة نقية بلا خطيئة. ارحل، يا مكرّس، وعُد بهذا النحو! - هذه لعنتي، لعنة ابنتك: ارحل، وعدْ نقيًّا إلى طفلتك، التي أبدًا لن تحب سواك!

كانت هذه أفكاري، وبيدين مرتعشتين بدأت في كتاب خطاب إلى والدي التعيس. كنتُ الآن قد قضيتُ ساعات طويلة وسط الدموع

t.me/qurssan

والتأمل الحزين، والساعة قد تجاوزت الثانية عشرة، كل شيء هادئ في المنزل، والهواء الرقيق الذي تسلل عبر النافذة لم يحرّك أوراق النباتات المتداخلة التي تظللها. استغرقتُ في هدوء تلك الساعة التي كانت أنفاسي وتنهداتي اللاإرادية الصوت الوحيد الذي يتردد خلالها. تناهى إلى سمعي فجأة صوت خطوات رقيقة تصعد الدرج، حبستُ أنفاسي، ومع اقترابها انسللت إلى بقعة مظلمة من الغرفة، توقفت الخطوات عند باب غرفتي، وبعد لحظات قليلة بدأتْ في التراجع مرة أخرى والهبوط عبر الدرج حتى اختفى صوتها تمامًا.

جعلتني هذه الحادثة البسيطة فريسةً لأكثر الأفكار إيلامًا، ولم أعد الآن قادرة على التعبير عن الانفعالات التي راودتني. أتفهم كونه قلقًا ومضطربًا، تجواله كشبح طليق وعجزه عن الوصول إلى راحة من الجحيم الملتهبة التي تستهلك قلبه. ولكن أن يقترب إلى غرفتي؟ أليس ذلك مفزعًا؟ شعرتُ أنني على وشك الإغماء مع وقوفه هنا، ولكني نجحتُ في إخفاء يقظتي تمامًا، رغم أنني سمعت قلبي وهو يخفق بخوف عنيف. ولكن أبي كان قد تراجع منسحبًا. أوه، ينبغي ألا أراه أبدًا بعد ذلك! غدًا مساءً قد لا نكون تحت السقف نفسه، هو أو أنا يتحتم عليه الرحيل، فقد تمزّقت الرابطة المتبادلة بين قدرَينا. يتحتم أن تفصل بيننا بحار - أراضٍ. يتحتم ألا تشرق النجوم والشمس في الوقت نفسه علينا: لعلّه لا يقول يومًا، ناظرًا إلى مشهد غروب القمر، "ماتيلدا الآن تراقب تداعيه" - لا، يجب أن يتغّير كل هذا. ليكن نور من حوله عندما يلتهمني أنا الظلام! ليشعر بشمس الصيف وأنا أرتجف بجليد الشتاء! لتفصل بيننا المسافة بين آخر العالم وبدايته!

بدأ الشرق في السطوع أخيرًا، وانساب ضوء الصباح المريح إلى غرفتي. أصابني الإرهاق من فرط الانتباه، ولبعض الوقت تصارعتُ مع نوم ثقيل يثقل على أجفاني: ولكن الآن، بعد أن تخلصت من الخوف، استلقيتُ على سريري. بحثتُ عن الراحة رغم أنني لم أتمن النسيان،

t.me/qurssan

وكنتُ أعرف أن الأحلام ستتعقبني في نومي، ولكنّي لم أجفل من الحلم المفزع الذي راودني بالفعل. أعتقد أنني في ذلك الحلم نهضتُ وبدأت في البحث عن أبي لإبلاغه بتصميمي على الانفصال عنه. بحثتُ عنه في المنزل، في الحديقة، ثم في الحقول والغابات. ولم أتمكّن من العثور عليه. في النهاية رأيته من بعيد يجلس في ظل شجرة، وعندما رآني لوّح لي بيده مرات عدة، داعيًا إيّاي للاقتراب، كان شيئًا ما غير أرضيّ في ملامحه، أصابني بالفزع والقشعريرة، ولكنني اقتربت منه. عندما أصبحت على مسافة قصيرة منه رأيت أنه كان شاحبًا كالموتى، مكفنًا بأردية بيضاء مسترسلة. وفجأة نهض وولّى دبره عني، تعقبته: تسابقنا عبر الحقول، وعبر ممرات الغابات وعلى ضفاف الأنهار، فرّ مسرعًا وتبعتُه. في النهاية، أعتقد أننا توقفنا عند حافة جرفٍ هائل يطل على بحرٍ مضطرب بالرياح وتصطخب أمواجه في أسفله. سمعتُ هدير المياه: توقف هو عند حافة الجرف تمامًا وانقطعتْ أنفاسي خشية أن يلقي بنفسه إلى أمواج البحر الصاخبة، حاولتُ أن أزيد من سرعتي، ولكن ركبتيّ تخاذلتا من أسفلي، ومع ذلك كنت قد وصلت إليه، ونجحتُ في الإمساك بجزء من ردائه المسترسل، وحينها قفز إلى أسفل واستيقظتُ بصرخة عنيفة. كنتُ أرتعش ووسادتي مبتلة بدموعي، لبرهة خفق قلبي بعنف، ولكن أشعة الشمس الساطعة وزقزقة الطيور سريعًا ما أعادتني إلى رشدي، ونهضتُ بروح ذابلةً، متسائلة مع ذلك عن وقائع اليوم التي ستقع. مضى بعض الوقت قبل أن أستجمع شجاعتي لقرع الجرس لاستدعاء خادمتي، وعندما جاءت لم أجرؤ رغم ذلك على النطق باسم أبي. طلبتُ منها أن تحضر لي إفطاري إلى غرفتي، وبقيت بمفردي مرة أخرى - ومع ذلك عجزتُ عن اتخاذ أي قرار، وكل ما فكّرت فيه هو أن أبعث برسالة إلى أبي أنشد إذنه في زيارة قريبة لي تعيش على بعد ثلاثين ميلاً، كانت قد

t.me/qurssan

دعتني سابقًا لزيارة منزلها، وهي دعوة رفضتها حينها بسبب عجزي عن هجر أبي البائس. عندما عادت الخادمة أعطتني خطابًا.

سألتُ مرتعشة: "ممن هذا الخطاب؟"

"لقد تركه والدك يا سيدتي مع خادمه لإعطائك إياه فور استيقاظك".

"تركه أبي! أين هو؟ أليس هنا؟"

"لا، لقد غادر المنزل قبل الرابعة هذا الصباح".

"يا إلهي! لقد رحل! ولكن أخبريني كيف حدث هذا؟ أخبريني بسرعة!"

لم تخبرني الخادمة بالكثير. لقد رحل في العربة إلى أقرب مدينة ومنها استقل عربة بريد بأحصنة متجهة إلى طريق لندن، بعد أن صرف خدمه ولم يخبرهم إلا بأن مسألة أعمال عاجلة تستدعي وجوده وأن عليهم إطاعة أوامر سيدتهم حتى عودته.

t.me/qurssan

الفصل السابع

بقلب يخفق من الخوف، لا أعرف لماذا، صرفتُ الخادمة وأغلقتُ باب غرفتي، وجلستُ لقراءة خطاب والدي. كانت هذه هي الكلمات التي احتوى عليها الخطاب.

"طفلتي العزيزة،

"لقد خنتُ ثقتك، لوثتُ عقلت، وحاولت أن أجعل قلبك البريء على معرفة بنظرات ولغة انفعال وحشيّ جائر. يتحتم عليّ أن أكفّر عن هذه الجرائم، وأسعى جاهدًا أن يتناسب العقاب مع حجم ذنبي. لا أظنّ أنكِ على استعداد لتلقي ما سأعلنه لكِ، علينا أن ننفصل وأن نفترق للأبد.

"بهذا أحرمكِ من أبيك وصديقك الوحيد. أصبحتِ شريدة، مطرودة بلا مأوى في العالم: ضاعت آمالك، وتداعى السلام والأمن في عقلك النقي، ستصبّ عليكِ ذاكراتك صورًا بشعة من الشعور بالذنب، وشقاء الحب البريء المجهض. مع ذلك، أنا من كان السبب في كل

t.me/qurssan

هـذه المـآسي، أنـا مـن نبذتـك ووسـمت بـلا رحمـة قلـب وجبـين ابنتـي بخاتـم الارتيـاب والألم، أنـا مـن سـعى برعونـة شـيطانية إلى سرقـة جمالـك ووضعـت مكانـه القبـح الكريـه للخطيئـة، أنـا، في غمـرة الألم المتدفـق في قلبـي، ألتمـس منـك الصفـح.

"لا أطلـبُ منـكِ شـفقةً، يتحتـم عليـكِ ازدرائي حقًّـا: ولكـن سـامحيني، يـا ماتيلـدا، ولا تسـمحي لأفـكارك بتعقبـي في منفـاي بغضـب لا يلـين. يتحتـم عـليّ ألّا أراكِ مـرة أخـرى أبـدًا، ألّا أسـمع صوتـكِ أبـدًا، ولكـن الهمسـات الناعمـة سـتصلني وتهـدئ مـن حرقـة عقـلي وقلبـي المضطـرب، أنـا عـلى يقـين بأننـي سأشـعر بـه حتـى وإن كنـت في قـبري. ولتعلمـي كيـف سـقطتُ فريسـة في شـبكة الألم الوحـشي هـذه وكيـف صارعـتُ بـكل السـبل لتحريـر نفـسي: حقًّـا، إن كانـت روحـك أقـل نقـاءً وإشراقًـا لم أكـن لأحـاول إبـراء نفـسي أمامـك، كان لي أن أخـشى أنـه إذا دفعـك كل هـذا إلى النظـر إليّ بـازدراء أقـل فقـد تكرهـين الخطيئـة بقـدر أقـل: ولكـن عـبر مخاطبتـك أشـعر كـما لـو أننـي أناشـد قاضيًـا ملائكيًـا. أعجـز عـن الرحيـل مـن دون عفـوك ويتحتـم عـليّ السـعي لنيلـه، وإلّا قتلنـي اليـأس. أناشـدكِ إذًا أن تنصتـي إلى كلـماتي، وإذا كان مـن الممكـن تخفيـف الشـعور بالذنـب ذي النيـة الحسـنة بـأي طريقـة عـبر الألم القـاسي، والنـدم الـذي يصيـب العقـل بالجنـون، فقـد تريـن، رغـم أمـلي المقطـوع في ذلـك، أننـي أسـتحق عطفـك عـلى نحـو مـا.

"أتـضرع إليـكِ أن تسـتدعي إلى ذاكرتـك حياتنـا السـعيدة الأولى عـلى شـواطئ لـوخ لومونـد. كنـتُ حينهـا قـد وصلـتُ لتـوي مـن تجـوال قلـق دامَ سـتة عـشر عامًـا كانـت عواطفـي خلالهـا فارغـة بالكامـل، رغـم اجتيـازي لأخطـار ومحـن لا تحـصى. إن كان حزنًـا قـد أصابنـي فهـو حـزني عـلى أمّـك، وإن كان حبًّـا فهـو حبـي لصورتـك، في عزلتـي لم يعـرف قلبـي إلّا هـذه المشـاعر. فالكائنـات البشريـة مـن حـولي لم تـثر داخـلي أي تعاطـف، واعتقـدتُ حينهـا أن التغيّر المهـول الـذي أحدثـه مـوت والدتـك في قلبـي

t.me/qurssan

قـد جعلنـي متصلبًـا ضـد أي انطبـاع مسـتقبلي. رأيـتُ مـا هـو جميـل ولكنـي لم أمنـح الحـب، تخيلـتُ بالتـالي أن كل الـدفء في قلبـي قـد انطفأ في مـا عـدا ذلـك الـذي قـادني إلى التأمـل في صورتـك الطفوليـة حينهـا.

"إنهـا رابطـة غريبـة في مصـيري أنـه مـن دون أن أراكِ اسـتطعتُ أن أمنحـك كل هـذا الحـب. خـلال تجـولاتي لم أسـتغرق أبـدًا في النـوم من دون اسـتدعاء الأحـلام العذبـة في عقلـك. وعندمـا كنـتُ أرى امـرأة جميلـة، أفكّـر، هـل تشـبهها ماتيلـدا؟ كل الأشـياء المبهجـة، والمشـاهدة الجميلـة، والنسـائم العذبـة، والموسـيقى المبهـرة بـدت لي مرتبطـة بـك وفقـط مـن خلالـك كان بإمكانهـا أن تبهجنـي. في النهايـة رأيتـكِ. وحينهـا نطقـتُ ملامحـك بألوهيـة عذبـة، وبـدوتِ كمـلاك مـن فـردوس لم تأذنِ إلا لشـخص واحـد بدخولـه، هـذا الشـخص كان أنـا. جـرؤتُ بصعوبـة عـلى اعتبـارك ابنتـي، فجمالـك، وبراءتـك وحكمتـك المكتسـبة بالفطـرة بـدت لي أنهـا تنتمـي إلى نظـام أرقـى مـن الأشـياء، كان صوتـك لا ينطـق بغـير كلـمات الحـب: إن كان في داخلـك أي شيء أرضي فلـم يكـن سـوى مـا أخذتِـه مـن جـمال العـالم، بـدوتِ كأنـك اكتسـبتِ بهـاء نسـيم الجبـال - الشـلالات والبحـيرات، وكل هـذا كان ذا منبـع أرضي باسـتثناء انفعالاتـك، فلـم تكـن فيهـا أي شـوائب، أو أي مشـاعر سـلبية في جوهرهـا. ومـع ذلـك، لم تأخـذي كفايتـك مـن العـالم لتعـرفي الفـرق المهـول بـين النسـاء اللـواتي نقابلهـم في الحيـاة اليوميـة وحوريـة الغابـات التـي تجسـدينها، في هاتـين العينـين بمفردهـما يمكـن للجنـس البـشري الاسـتغراق لقـرون في الحكمـة والنقـاء. تلـك الأنـوار الإلهيـة التـي سـطعت عـليّ كـما سـطعت شـمس بياتريـس عـلى دانتـي، رغـم اختـلاف المشـاعر تجـاه ذلـك بينـي وبينـه.

E quasi mi perdei gli occhi chini[1]

(1) "وأوشكتُ أن أفقد عينيّ"، مقطع من جحيم دانتي

t.me/qurssan

هل تتخيلين يا ماتيلدا أنني استغرقتُ في كتبك، وكلماتك، وحركاتك، وتشرّبت كل ذلك في بهجة لا تشوبها شائبة؟

"ولكن أخشى أنني أبتعد عن مقصدي. عليّ أن أكون موجزًا، فالليل يقترب مسرعًا وساعاتي في المنزل أصبحت معدودة. حسنًا، انتقلنا إلى لندن، وكنت لا أزال أشعر بسلام المشاعر الطاهرة. كنتِ معي دومًا، ولم أكن أرغب في أكثر من التحديق في ملامحك، ومعرفة أنني العالم كله بالنسبة إليك، كنتُ مضطجعًا في جنة الحمق الممتلئة بالمتعة والأمان، فهل يمكن أن ألام على حبي؟ إن كان الأمر كذلك فقد كنتُ جاهلاً به، ولم أرغب سوى فيما بين يدي، وإن كنتُ قد وجدتُ في كتبك وكلماتك وأحضانك البرية نشوة غريبة على مشاعر أب تجاه طفلته، ومع ذلك لم أشعر بأي اضطراب، أو رغبة، أو فكرة عابرة تدعوني للشعور بالذنب. أحببتكُ كما يفترض لأب إنسان أن يحب ابنة ولدت له من أم سماوية، كما كان لأنكسيز[1] أن ينظر إلى طفل فينوس لو تغيّر جنسه، حب مختلط بالاحترام والافتتان. ربما وجدت عاطفتي هذه الارتياح بسبب المشاعر العميقة والاستثنائية التي راودتك تجاهي.

"ولكن عندما رأيتكِ وقد أصبحتِ موضوعًا لحب شخص آخر، عندما تخيّلت أنك قد تستمتعين بحب يختلف عن الحب المقدس وصورة الجمال والأبهة، أو أنك قد تحبين شخصًا آخر بعاطفة أكثر حماسةً من حبك لي، حينها استيقظ الشيطان داخلي، طردتُ محبوبك، ومن تلك اللحظة لم أعرف السلام النفسي، بحثتُ بلا جدوى عن الحب والراحة، ولكن أجفاني أبتْ أن تنغلق، وفارت دمائي بثورة أبدية. استيقظتُ على حياة جديدة كما يمكن للمرء الذي يموت مستغرقًا في الأمل أن يستيقظ في الجحيم. لن أشوّه خيالك بسرد معاركي، وغضبي

---

(1) عشيق فينوس (أفروديت) البشري في الأساطير الإغريقية

t.me/qurssan

من نفسي ويأسي. ليكن حجاب على المشاعر التي لا يمكن تخيّلها لأب يشعر بالذنب، حتى لا تبتذل أسرار قلب مفعم بالألم. كان الأمر في مجمله ثورة اضطراب، وجريمة، وندم وكراهية، ومع ذلك أرق أنواع الحب، وأول ما أيقظني على القرار الصارم بالانتصار على انفعالي وباستعادة الأب لابنتي كان مشهد حزنك المرير والمتعاطف. كان هذا ما قادني إلى هنا: اعتقدتُ أنه إذا استطعتُ أن أوقظ في قلبي مرة أخرى الحزن الذي شعرتُ بها على فقد أمك، والارتباطات العديدة مع ذكراها التي ظلت خامدة طوال سبعة عشر عامًا، فإن كل الحب لطفلتها سينتهي ويتلاشى. في نوبة بطولة انفعالية قررت أن أرحل بمفردي، أن أغادرك، يا حياة حياتي، وألّا أراكِ مرة أخرى حتى يختفي شعوري بالذنب ربما. ولكن حتى هذا لن يكفي: كنتُ أحسب أن قوتي كبيرة جدًا، أو أن حبي ضئيل جدًا. كان من المفترض أن أموت بالتأكيد إذا لم تسرعي إليّ. لولا ذلك لكنتُ تلاشيت للأبد حقًا!

"والآن، ماتيلدا، إليكِ اعترافي الأخير. لقد أخطأت على نحو بائس في تخيّل أنني أستطيع هزيمة حبي لكِ، لكنّي عاجز. فمشهد هذا المنزل، وهذه الحقول والغابات التي عرفت حبي الأول تبدو كأنها تحيطه بحمايتها: في جنوني قلت لنفسي - لقد ماتت ديانا وهي تلدها، انتقلت روح والدتها إليها، وينبغي أن تكون كما كانت ديانا بالنسبة إليّ. كل مجهود بذلته لطرد هذا الحب يجعله يقترب أكثر وأكثر، هذا الحب الأكثر شذوذًا من الكراهية، الذي يقتل آمالك ويدمرني للأبد.

كان من الأفضل أن أحب اليأس، والأكثر سلامًا أن أقبّلها

لا يمكن لأي زمن أو مكان أن ينزع عن روحي ما هو جزء منها. منذ وصولي إلى هنا لم أتوقف لوهلة عن الشعور بجحيم الانفعال التي زُرِعت داخلي ليحترق حتى يبرد كل شيء ويتصلب ويموت.

t.me/qurssan

ومع ذلك لن أموت، واحسرتاه! كيف أجرؤ على الذهاب إلى حيث أقابل ديانا، وقد عصيتُ طلبها الأخير؟ قالت كلماتها الأخيرة بصوت خافت وقد اختفت المشاعر باستثناء الحب، وبقيَ حيًّا ومات كل ما سواه، ثم ناشدتني أن أجعل طفلتها سعيدة: تلك الفكرة بمفردها تحرقني حتى الموت. سأهيم بعيدًا عنكِ، بعيدًا عن الحياة بكاملها - وفي العزلة سأسعى منفردًا إلى تلقّي أنفاس النوع البشري. يجب أن أحتمل وجودي على قيد الحياة، بل ومن واجبي، حتى يستقبلني القبر، مهابًا ومرغوبًا في آن واحد، خاليًا من أي ألم: لوهلة شعرتُ أن الألم هو ما سيكون خلاصة مشاعري. أليستْ هذه هي اللعنة المخيفة التي أجاهد في ظلّها؟ ألستُ أنظر إلى مستقبل بائس أمامي؟ طفلتي، إذا سُمحَ لي بعد هذه الحياة أن أراكِ مجددًا، إذا كان يمكن للألم تطهير القلب، سيكون قلبي طاهرًا: إن كان للندم أن يكفّر عن ذنبي، فبريئًا سأكون.

"عندما وقفتُ على باب غرفتك: كان كل شيء غارقًا في الصمت، وأنتِ نائمة. هل تنامين فعلاً يا ماتيلدا؟ يا أرواح الخير، انظري إلى دموعي وصلواتي المخلصة! باركي طفلتي! احميها من الأنانيين من بني البشر: احميها من آلام العاطفة، ويأس خيبة الأمل! ليكن السلام والأمل والحب حرّاسك، أوه، أنتِ روح داخل روحي: أنتِ من تنطلق إليها أنفاسي!

"لا تواتيني الشجاعة لإعادة قراءة خطابي، فلا وقت لديّ لكتابة آخر، ومع ذلك أخشى أن أنزعج لاحقًا من بعض التعبيرات فيها. منذُ رأيتك آخر مرة وأنا منشغل باستمرار في كتابة الخطابات، ولديّ المزيد منها لأكتبه، حتى تنقطع أخباري تمامًا عن الجميع بعد رحيلي. لا أحتاج إلى مناشدتك لاعتبار أن جميع الصلات التي كانت بيننا يومًا قد انقطعت. وأنا على يقين بأن لطفك لن يسمح لك بمحاولة تعقبي. من الأفضل من أجل سلامك النفسي أن تجهلي وجهتي. لن

t.me/qurssan

تتبعيني، فإذا كنتُ قد نفيتُ نفسي فهل ستتحملين ذنب إقحامك نفسك عليّ؟ لن تفعلي هذا، أعرف أنك لن تفعلي. عليكِ نسياني ونسيان كل الشرّ الذي بحتُ به لكِ. اطردي الهبة الوحيدة التي منحتك إيّاها، حزنك، وانهضي من تحت تأثيري المهلك كما لم تنهض زهرة عذبة من قبل من تحت شرٌ كهذا.

"لن تسمعي أيّ أخبار عنّي مجددًا: تلقّي خطابي هذا على أنه الكلمات الأخيرة التي تصلك مني، ورغم أنني تنازلت عن حبك لي كابنة، فانظري إلى هذه الكلمات كأمر من والدك. اطردي عنك بحسم هذه المحنة التي أصابتك في بداية حياتك. وتحمّلي العاصفة بشجاعة: استمري حكيمة ورقيقة، وصدقيني، والأمر هكذا بالفعل، فإن واجبك أن تكون سعيدة. ما زلت شابة جدًا، لا تسمحي لهذا بأن يعيق لأكثر من برهة مسار حياتك المجيدة، قاومي يا محبوبتي. فشمس الشباب لم تغرب بعد بالنسبة إليك، وستعود إليكِ الحماسة والحياة، لا تقاومي بحزن عنيد التأثير المفيد لتلك المأساة، أوه، يا طفلتي! لتباركيني بأمل أنني لم أدمّرك تمامًا.

"وداعًا ماتيلدا. سأرحل وفي قلبي إيمان بأنني نلتُ عفوك. فطبيعتك الرقيقة لن تسمح لكِ بكراهية ألدّ أعدائك وإن كنتُ أنا واحدًا منهم، رغم أنني انتزعتُ السعادة من أنفاسك، رغم مروري على حبك وآمالك الشابة كملاك الدمار، الذي وجد الجمال والبهجة، وخلّف وراءه المحنة واليأس، رغم كل هذا سأنال صفحك، وبعينين تغرقان في الدموع أشكرك يا محبوبتي، وأقبل صفحك بامتنان لن يموت، بل حقًا سيعيش إلى ما بعد الإثم والندم.

"وداعًا للأبد!"

في اللحظة التي أنهيتُ فيها الخطاب طلبتُ إحضار عربة وتجهيزها لأتبع أبي. كانت كلمات خطابه التي أثناني فيها عن هذه الخطوة

t.me/qurssan

هي ما أشعل تصميمي على ذلك. لماذا كتبها؟ عليه أن يعرف أنه إن صدّقت أن نيّته كانت فقط أن يغيب عني، فإنه بدلاً من معارضته فسيكون ذلك ما أطلبه بنفسي، أو أنه إن اعتقد أن أي مشاعر كامنة، مع أنه لم يفكّر في ذلك، ستقودني إليه، فهي محاولة للقضاء على الأمل الوحيد لديه بأن يراني مرةً أخرى، كمحبوب، فكرة تنطوي على جنون، ومع ذلك إن كان محبوبي الوحيد، فلن يتصرف هكذا. لا، لقد قرر أن يموت، وكانت رغبته أن يعفيني من مأساة معرفة ذلك. الكلمات القليلة التي قالها بلا تأثير بخصوص واجبه كانت بالنسبة إليّ دليلاً آخر - وكلما قرأت الخطاب رأيت ألف تعبير خفي يشير فقط إلى معرفة أن الحياة قد انتهت بالنسبة إليه الآن. كان على وشك الموت. تجمدتْ دمائي بسبب هذه الفكرة، استولى عليّ شعور مرعب مثير للغثيان لدرجة عجزي عن البكاء. في أثناء انتظاري لمجيء العربة مشيتُ غُدوًّا ورواحًا بخطوة سريعة، ثم جثوتُ على ركبتي وقبضتُ على يدي بانفعال وحاولت أن أصلي ولكن صوتي اختنق بتشنجات مضطربة. أوه، كانت الشمس ساطعة، والهواء منعشًا - عليه رغم أي شيء أن يعيش وإلّا فإن موته يعني ظلام الليل بالنسبة إليّ!

في حركة العربة ومعرفتي أنها تحملني نحوه وأنني قد أراه حيًّا على نحو ما استعدتُ شجاعتي: ومع ذلك كانت الرحلة مفزعة. لم يدعمني إلا الأمل، الأمل أنني يجب ألّا أصل متأخرة. لم أبكِ، ولكني مسحتُ العرق عن جبيني وحاولت أن أُبقي على ثبات عقلي بعد أن وصلت ضربات قلبي إلى حد الجنون تقريبًا. أوه! يجب ألّا أقع فريسة للجنون عندما أراه، أو ربما أجنّ فعل، قد يمنحه تشتتي الهدوء، ويعيد إليه القدرة على تحمّل الحياة. ومع ذلك حتى أجده يجب أن أبقى على إدراكي في مكانه، وأضغط على جبيني بيدي بأقصى قوة. أوه، لا تغادرني، وإلّا سأنسى ما أنا مقبلة عليه - بدلاً من السير كما ينبغي بسرعة البرق سيعيقني كل هذا وسنصل متأخرين جدًّا.

t.me/qurssan

أوه! ساعدني يا إلهي! أبقه حيًّا! كان الظلام يملأ الطريق من حولي، وفي حزني المتذلل لا أطلب المزيد: لا أمل، لا خير: فقط انفعال، وإثم، ورعب، ولكن حيّ رغم ذلك! على قيد الحياة! أصابتني مشاعري بالاختناق - لم تتساقط أي دموع ومع ذلك استغرقت في النشيج، مع أنفاس قصيرة وثقيلة، فكرة واحدة استحوذت علي، ولم أنطق إلّا بكلمة واحدة، وبصوت يكاد يتحول إلى صرخة على أطراف شفتيّ، حيّ! حيّ!

كنتُ قد أخذت الخادم معي لأنه، على نحو أفضل مني بكثير، يستطيع القيام بالاستفسارات اللازمة - كان العجوز البائس عاجزًا عن كبح دموعه عندما رأي محنتي الرهيبة وعلمَ السبب - كان أحيانًا ما ينطق ببضع كلمات غير مكتملة لمواساتي: في لحظات كهذه تصبح العشيقة والخادم متساويين. وعندما رأيت عينيه الخاملتين العجوزين وهما مبتلتان بدموع التعاطف، وشعره الرمادي مبعثرًا وخفيفًا على جبين تملؤه تجاعيد التقدم في السن، فكّرت في أنه، أوه، إن كان أبي كذلك أيضًا - تملؤه الشيخوخة والشيب - فأنا في غنى عن هذا الألم.

عندما وصلتُ إلى أقرب مدينة أخذتُ خيول البريد وتبعت الطريق الذي اتخذه أبي. عند كل نزل بدّلنا فيه الخيول سمعنا به، وسقطتُ فريسة لأمل وخوف متناوبين. في النهاية اكتشفتُ أنه غيّر مساره، في البداية اتخذ طريق لندن، ثم غيّره لاحقًا، وعند السؤال اكتشفتُ أن الطريق الذي يتخذه الآن يقود نحو البحر. عاد الحلم إلى أفكاري، لم أكن عادة متشائمة أو متطيرة ولكن في ظل محنة كهذه يكون الجميع كذلك. كان البحر على بعد خمسين ميلاً، ومع ذلك هربَ في اتجاهه. كانت الفكرة مرعبة لخيالي نصف المجنون، وأضاع تقريبًا القليل من تمالك الذات الذي ما زال بداخلي. سرتُ طوال النهار، وفي كل لحظة تقريبًا يزداد شعوري بالمأساة وتصبح حمّى دمائي غير محتملة. سطعت شمس الصيف في سماء بلا سحب، وكان الهواء

t.me/qurssan

مكتومًا ومع ذلك شعرتُ بكل شيء باردًا باستثناء جلدي المحترق. قرب المساء ارتفعتْ في الأفق السحب الرعدية وسمعتُ دويّها البعيد - بعد الغروب أظلمت السماء بالكامل وبدأ المطر، وأضاء البرق الريف بكامله وغرقت ضوضاء عربتنا في هزيم الرعد. في النزل التالي، لم يكن أبي قد أخذ أي أحصنة، فقد ترك صندوقًا هناك قائلاً بأنه سيعود، وسار عبر الحقول إلى مدينة - بلدة على ساحل البحر على بعد ثمانية أميال.

لوهلة سقطتُ فريسةً للشلل بفعل الخوف، ولكن طاقتي عادت إليّ عندما طلبتُ مرشدًا لصحبتي في تتبع خطواته. كان الليل عاصفًا ولكن رشوتي كانت كبيرة مكّنتني من تأمين أحد أبناء البلد. عبرنا عبر طرق عديدة وعبر حقول ومنحدرات بريةً، تساقط المطر في زخات وانكسر هزيم الرعد في اصطدامات مرعبة على رؤوسنا. أوه! كانت ليلةً ليلاء! خطوتُ بخطوات سريعة بين العشب الرطب المرتفع في قلب المطر والعاصفة. استولى الحلم على أفكاري، وبقدر ما من الجنون الذي غالبًا ما يستولي على عقلي في حالات اليأس، صحتُ بصوتٍ عالٍ، "لنكن شجعان، لم نقترب بعد من البحر، ما زلنا على بعد أميال من المحيط" - ومع ذلك كان البحر وجهتنا وهو ما زاد من ارتباك أفكاري. فجأة، بفعل التعب، غرقت في الطمي المبتل، وعلى بعد مئتي ياردة، وحيدة في قلب مرج متسع كانت شجرة بلوط هائلة، تنكشف أغصانها اللانهائية بفعل ضوء البرق وتتكسر بفعل العاصفة. راودتني فكرة غريبة، يجب على المرء أن يستشعر كل آلام الشك التي تحيط بحياة وموت الآخر الذي يمثّل له العالم بأكمله قبل أن يتمكّن من الدخول إلى أفكاري - لأن العقل، في هذه الحالة، غير مقيد بالإرادة، سيصنع تزاوجات غريبة وخيالية مع الظروف الخارجية وينسج فرصًا وتغيّرات في الطبيعة على شكل ارتباط وثيق مع الحدث الذي يرعبه. كنتُ فريسةً لتلك المشاعر عندما استدرتُ

t.me/qurssan

إلى الخادم العجوز الذي بدا شاحبًا ومرتعشًا بجواري وقلت له: "انظر، جاسبر، إذا لم تشق ومضة البرق التالية شجرة البلوط تلك فإن أبي سيكون ما زال حيًّا".

لم أكد أنطق هذه الكلمات حتّى جاءت ومضة برق تتبعها على الفور جلجلة رعد هائلة هبطت عليها، وبعد أن استعادت عيناي نظرهما بعد الضوء المبهر، لم تعد شجرة البلوط تقف في مكانها على المرج - نطق الرجل العجوز باندهاش الرعب عندما رأى تفسيرًا فوريًّا لنبوءتي. اعتدلتُ وقد عادت إليّ القوة، وصحت بفزع قائلةً: "يا إلهي! هل هذه مشيئتك؟ مع ذلك ربما عليّ ألّا أتأخر كثيرًا".

رغم أنه ما زالت أمامنا أميال بعيدة، تابعنا طريقنا نحو البحر. وصلنا أخيرًا إلى الطريق الذي يؤدي إلى بلدة - وفي النزل علمنا أن أبي غادره قبل غروب الشمس، بعد أن لاحظ اقتراب العاصفة، واستأجر حصانًا إلى البلدة التالية التي تقع على بعد ميل من البحر حتى يصل إليها قبل بدء العاصفة: كانت هذه البلد على بعد خمسة أميال. استأجرنا عربة وسرنا بأربعة أحصنة بسرعة عبر العاصفة. كانت ملابسي مبتلة وملتصقة بجسدي، وشعري يتدلى في خصلات مستقيمة على عنقي إن لم تطيّره الريح جانبًا. استهلكتني الحمّى والرعشة. يا إلهي العظيم! يا له من ألم أتحمّله. لم أسكب أي دموع ولكن عينيّ كانتا متوترتين وملتهبتين حتى كادتا تقفزان من محجريهما، بالكاد كنت أتحمّل الوزن الذي يضغط على دماغي. وصلنا إلى البلدة - في زمن يزيد قليلاً على نصف ساعة. عندما وصل أبي كانت العاصفة قد بدأت، ولكنه رفض التوقف وترك حصانه هناك ثم أكمل مسيره على قدميه - في اتجاه البحر. واحسرتاه! كانت قسوة مضاعفة منه أن يختار البحر لتنفيذ قراره القاتل، فهو قرار يضيف الجنون إلى يأسي.

t.me/qurssan

حاول الخادم العجوز البائس الذي كان معي إقناعي بالبقاء هنا والانطلاق بمفرده - هززت رأسي بصمت وحزن، استندتُ بذراعي وأنا معتلّة لدرجة الموت، وحيث إنه لم يكن يوجد طريق للعربة اجتررت خطواتي المتعبة عبر المنحدرات الكئيبة للقاء مصيري، يملؤني يقين يغطي على ألم الشك. اقتربتُ ببطء من المياه القاتلة وأنا على وشك الإغماء، كنا قد سمعنا هديرها عندما غادرنا البلد. همستُ لنفسي بصوت خافت - "إنه الصوت نفسه الذي سمعته في الحلم. ما أسمعه هو ناقوس نعي والدي".

كان المطر قد وقف، لم يعد هناك رعد أو برق، سكتت الرياح. لم يعد قلبي يخفق بعنف، ولم أعد أشعر بأي حمّى: بل كنتُ مسترخية، ركبتاي مضمومتان أسفلي - غلبني النوم تقريبًا وأنا أسير بما يتجاوز الإعياء، ترتعش أطرافي. كنتُ صامتة، كل ما حولي كان صامتًا باستثناء هدير البحر الذي أصبح أعلى وأكثر فزعًا. ومع ذلك تقدمنا ببطء: فكّرت لوهلة أننا لن نصل أبدًا، أن صوت الأمواج يغرينا مع ذلك، وأننا سنظل نسير للأبد: الحقل تلو الحقل، لن تنتهي رحلتنا المرهقة أبدًا، ليلاً أو نهارًا، وما زلنا نسمع جيشان البحر، ومع ذلك فلا نهاية تبدو لكل ذلك. الأفكار التي تولد في رحم الحزن واليأس هي أكثر جموحًا من خيال السعادة.

في النهاية وصلنا إلى الشاطئ المنحدر على البحر، وعلى جانب الطريق يقف كوخ منفرد، طرقنا الباب وانفتح: وعلى الفور لمحت السرير في الداخل، شيء ما متصلب ومستقيم يستلقي عليه، مغطى بملاءة، وسكان الكوخ ينظرون إليها بذهول وفزع. كانت كلماتهم الأولى بمثابة تأكيد لما كنتُ أعرفه مسبقًا. لم أشعر بأي صدمة أو انكسار: أعتقد أنني طرحتُ سؤالاً أو سؤالين واستمعت إلى الردود عليها. بالكاد أعرف، ولكن في غضون برهة سقطتُ خالية من الحياة على الأرض، وحينها كانت نهاية الأشياء كلها!

t.me/qurssan

الفصل الثامن

حملوني إلى المدينة التالية، تتعاقب عليّ الحمّى مع التشنجات والإغماءات، ولبضعة أسابيع تأرجحت روحي التعيسة على حافة الموت. لكن الحياة كانت قويّة داخلي رغم ذلك، تعافيتُ، لكن صحتي التي عاودتني لم تقدّم لي الكثير في ذكرياتي التي كانت مشوشة في البداية، بل وكنتُ شديدة الضعف لأشعر بأي انفعال عنيف. كثيرًا ما كنت أقول لنفسي، إن أبي ميّت. أحبّني بعاطفة مذنبة، ثم ملدوغًا بالندم واليأس قتل نفسه. لماذا لا أشعر بأي فزع؟ أليست هذه الحوادث كلها مريعة حقًّا؟ ألا يكفي أنني لن أرى أبدًا عيني أبي الحبيب ثانيةً، ولن أسمع صوته، لا عناق، ولا نظرات بعد الآن؟ كل شيء أضحى باردًا، ومتخشّبًا وميتًا! واحسرتاه! أنا قاسية القلب جدًّا: الليل الذي خرجتُ إليه كان رهيبًا والأمطار الباردة التي تساقطت على قلبي كانت كمياه مغارة أنتيباروس[1]، محوّلة إيّاه إلى حجر. لا

(1) كهف عجائبي على جزيرة أنتيباروس في اليونان - المترجم

t.me/qurssan

أبكي ولا أتنهد، لكنّي يجب أن أستمع إلى صوت العقل داخلي، وأجبر نفسي على الشعور بالحزن واليأس. ليس استسلامًا ما أشعر به، فأنا ميتّة تجاه كل ندم.

تناجيت مع نفسي بهذه الطريقة، لكنني كنتُ صامتة تجاه كل من حولي. بالكاد أجيب عن أي سؤال، وبل ويصيبني الاضطراب عند مرأى أي كان بشري بالقرب مني. كنتُ محاطة بقريباتي من النساء، لكنهن جميعًا تقريبًا كنّ غريبات بالنسبة إليّ: لم أنصت إلى تعزياتهن، وضعيفًا جدًّا كان التأثير الذي خططن له لحدّ أنه بدا لي أنهن يتحدث بلغة غير معروفة. اكتشفتُ أنه إذا كان الحزن ميتًا داخلي، فكذلك كان الحب والتوق إلى التعاطف. مع ذلك، فالحزن وحده غفى قليلاً فحسب حتى ينهض من جديد أكثر شراسةً، لكن الحب لم يستيقظ أبدًا - شبحه، الهائم أبدًا على قبر أبي، هو ما بقي على قيد الحياة فحسب - منذ موت أبي كان العالم كله بالنسبة إليّ مجرد خواء إلّا في الموضع الذي خطّت فيه المحنة كلماتها الحارقة تأمرني بالانقطاع عن الابتسام للأبد - لم تكن رفقة الأحياء لتناسبني، وكنتُ دومًا أتأمل بأي طريقة يمكنني إبعادهم جميعًا، حتّى لا أسمع عنهم ثانيةً أبدًا.

تحسّنت عافيتي بسرعة، لكن تلك بالضبط كانت الفكرة التي لازمتني، وكنتُ دومًا أضع الخطط لكيف سأهرب بعد ذلك من العذابات التي كانت تُجهزّ لي عندما أنخرط في المجتمع، وكيف سأجد تلك العزلة التي تلائم وحدها شخصًا عزله حزنه غير المحكي عن أقرانه من المخلوقات. من يمكن أن يكون أكثر عزلةً في قلب زحام من إنسان لا تعلم عن تاريخه وانفعالاته التي لا تنتهي روح حيّة واحدة. في حكايتي رعب متجذر لحدّ أنه أكبر من أي ثقة، كنتُ أنا على الأرض المستودع الوحيد لأسراري. قد أحكيها للرياح ولكثبان الصحراء لكن أبدًا ليس لأقراني من المخلوقات، لا بكلمة ولا بنظرة من جانبي سأسمح بأقل حدس عن الحقيقة المرعبة، عليّ أن أتراجع أمام عين

t.me/qurssan

الإنسان خشية أن يقرأ جريمة أبي في عينيّ اللامعتين، عليّ أن أصمت دومًا خشية أن يفضح صوتي المتداعي مخاوفي غير المتخيّلة. من فوق القبر العميق لأسراري على أن أقفز قفزة لا يمكن أن تخترقها الابتسامات والكلمات الزائفة: حيَل ماهرة، ضحكات خائنة وخليط من الكذبات الخفيفة قد تشكّل معًا ضبابًا يعمي الآخرين وقد تقتلني بسمّها. أنا، ذريّة الحب، طفلة الغابات، رضيعة جوهر الطبيعة المشرقة، عليّ أن أستسلم لكل هذا؟ لكنّي لم أجرؤ.

كيف لي أن أهرب؟ كنتُ ثريّة وشابة، وقد عيّنوا وصيًّا على تركتي، وكل ما حولي يخلق شعورًا كما لو أنني واحدة من مجتمعهم الكبير، في حين أنني لا بدّ من أن أحافظ على السر الذي حجبته عنهم للأبد. إذا هربت فحتمًا سيتعقبونني، في الحياة لا مهرب أمامي، أوه، إذًا فيجب أن أموت. ارتعشتُ من الفكرة، لم أجرؤ على الموت حتّى وإن كان القبر البارد يضم كل ما أحببت، رغم أن لي أن أقول مع النبي أيّوب:

أين أضحت آمالي الآن؟ من له أن يراها؟

ستهبط معًا إلى مغاليق الهاوية، حيث تصبح راحتنا كامنةً في التراب -- [1]

نعم، كان أملي هو الخراب والغبار وكل ما يجلبه الموت لنا. - أو الحياة الأخرى - لا، لا، لن أقنع نفسي بالموت، لا يجوز، لا أجرؤ. وحينها بكيت، نعم، دموع حارة شقّت طريقها ثانيةً إلى عينيّ، دموع مريحة لكن مريرة، وبعد أن بكيت كثيرًا وناديتُ بألم لا طائل منه، بأذرع ممتدة، على أبي قاسي القلب، بعد أن استهلكتُ جسدي الضعيف بكل أنواع الظلامات، غرقتُ ثانيةً في أحلام اليقظة، وثانيةً استغرقت في التأمل في كيف لي أن أجد ما أتوق إليه، العزيز عليّ إذا كان شيئًا البتّة عزيزًا عليّ. عزلة تشبه الموت.

---

(1) سفر أيوب، الإصحاح 17، الآيتان 15-16، بتصرف - المترجم

t.me/qurssan

لم أجرؤ على الموت، لكنّي قد أتظاهر بالموت، وبذلك أهرب من مانحي العزاء، سيظنون أنني اتحدتُ بأبي، وهكذا حقًّا سأكون. فوحدي، بلا صوت يشوّش أحلامي، ولا عين باردة ترى النار في عينّي، حينها فقط قد أتناجى مع روحه، على سهل وحيد، في الظهيرة أو عند منتصف الليل، ساكنةً سأكون بجواره. كانت وصيته الأخيرة لي أن أكون سعيدة، ربما لم يكن يقصد السعادة المبهمة الظليلة التي وعدتُ نفسي بها، رغم ذلك فذلك النوع من السعادة فقط ما أستطيع تذوّقه. بالطبع لم يتصوّر أبدًا أنني قد أكون واحدةً من الصيّادين المبتسمين الذين يطاردون الفقاقيع التي تتكشّف عن لا شيء عند الإمساك بها، وبعد فقاعة بألوان أكثر إشراقًا، يغدو غدًا أيضًا مجرد فقاعة، لكنها فقاعة رائعة الجمال، مزخرفة لحدّ أن لا شيء يجذبني بعدها، وفوق ذلك يقتلني الإرهاق بسبب المطاردة، شبه ميتة من الضجر.

سأتظاهر بالموت، وحينها سيستولي ورثتي المبتهجين على ثروتي، أي أنني سأشتري حريّتي. لكن خطتي يجب أن توضع بفن، لن أترك معدمة، عليّ تأمين بعض المال. واحسرتاه! إلى أي تبدلات بشعة عليّ أن أمضي؟ إلى ذلك، فإن القدر قد منحني حياةً كاملةً من الزيف، وعندما يدفعني الندم على تلفيقي الخداع إلى التراجع عن تصميمي، كانت مجرد زيارة من خالة أو عمّة ترجعني على نحو لا يقاوَم وتمنحني التأكيد، بعد أن تقول لي مثلاً إن الموت هو نهاية كل الأحياء. ثم تقول إن أبي بالتأكيد قد فقد رشده منذ موت أمي، إنه كان مجنونًا وإنني كنت محظوظة، لأنه في واحدة من نوباته أوشك على قتلي بدلاً من تدمير كينونته المخبولة. وكل هذا، بالتأكيد، كان يقال بلطف، وليس بكلمات مباشرة تجرح مشاعري.

أهمس بهذا وذاك،

t.me/qurssan

في الظلام ضعيفًا وخافتًا

بعينين كاسفتين، وابتسامات أو تأوهّات متعاطفة، وإنصاتي بملامح هادئة في حين يرتعش كل عصب داخلي، لم أجرؤ على النطق بنعم أو لا على كل هذا التجديف. أوه، كانت حياة فاتنة لا يشوبها أي مكر! أنا بنظرة اليمام وقلب الثعلب، لأنني في حقيقة لم أشعر إلا بانحطاط الزيف، وليس بأي شعور مقدس ببراءة واعية قد تكفّر عن الزيف. أنا من كنتُ في السابق مكسوة بالرداء البرّاق للإخلاص عليّ أن أستعير لونًا مبهرجًا، قد أجلس بصعوبة في البداية، لكن مع الاستخدام سأتمكن من وضعه بطيّات متأنقة، وأن أستلقي بسلاسة. نعم، قد أصبغ روحي بالزيف حتى أخفي لونها الحقيقي تمامًا. أوه، يا أبي الحبيب! اقبل القلب النقي لابنتك التعيسة، اسمح لي بأن أتبعك متخفيّةً فأنت في كل الأحوال تتعرف على هيئتي المتبدّلة. كما أن للحزن أن يغيّر كونستانس[1] كذلك الخداع له أن يغيّرني حتّى تقول أنتَ في السماء، "هذه ليست طفلتي" - حتّى أكون سعيدة الآن، وحين نلتقي ثانيةً يجب أن أحلّق بعيدًا عن هذه الحياة التي ليست إلا زيفًا بالنسبة إلى شخص مثلي. في العزلة وحدها سأجد نفسي، في العزلة سأكون لك وحدك.

واحسرتاه! حتّى إنني الآن أنظر إلى ما ورائي بامتعاض وأسترجع تضحياتي وحيَلي التي نجحت من خلالها، بعد كثير من الصراعات المؤلمة، في تحقيق انسحابي. قد أدخل في تفاصيل طويلة بشأن الوسيلة التي استخدمتها، أولاً حتى أضمن لنفسي إعانة ضئيلة تكفيني بقية حياتي، وبعدها لضمان الاقتناع بموتي، ربما أحكي، لكنّي لن أفعل. بل إنني أحمرّ خجلاً الآن من الزيف الذي نطقت به، وقلبي يسقم: سأترك هذا التعقيد والالتباس لما أتمناه، وما أسميه بشك ما خداعًا

(1) أم الأمير آرثر في مسرحية الملك جون لشكسبير - المترجم

t.me/qurssan

بريئًا، لخيال القارئ. تنتابني وساوس الذكرى كجريمة - أعرف أنه إذا كان لي أن أحاول ربطها بحكايتي فستبقى غير مكتملة في نهاية المطاف. قادوني إلى لندن، واضطررتُ لأسابيع إلى أن أتحمّل النظرات الباردة، والكلمات الباردة، والعزاءات الأكثر برودة: لكنّي نجحتُ في الهروب، حاولوا تقييدي بقيود ظنّوا أنها حريرية، لكنها أثقلت عليّ كالحديد، رغم أنني كسرتها بسهولة كما لو كانت حزامًا من قش، وانطلقتُ إلى الحرية.

كانت الأسابيع القليلة التي قضيتها في لندن الأكثر بؤسًا في حياتي، المدن الهائلة هي موطن مرعب لحزن المرء. الغروب والقمر الرقيق، والحركة المقدّسة لأوراق الشجر وخرير الماء كانت جميعها بمثابة أطباء لطيفين لعقل منهك. الروح تتمدد وتحتسي دواءً مهدهِدًا - بالنسبة إليّ كان ذلك كمرأى ثعابين المياه الفاتنة للبحّار المسحور - في طبيعة هادئة، مباركة، جميلة، حتى نزلتْ على روحي البرَكة بلا قصد. لكن في المدينة كل شيء ينغلق كأنه سجن، سجن بأسلاك لا ترى من خلالها سوى السماء. لا يمكنني أن أصف ما كانته الطبيعة شديدة الاهتياج لمشاعري في أثناء إقامتي هناك، كثيرًا ما أوشكتُ على الجنون. لكن لا، عندما أنظر إلى الوراء وأسترجع كثيرًا من أفكاري الجامحة، أفكار بالكاد نجحت الأفعال في مجاراتها، عندما طوّحت بيديّ عاليًا داعيةً قوس السماء لأن يهبط عليّ لدفني تحته، عندما مزّقت شعري وألقيته إلى الهواء صائحةً، "أصبحتَ حرًّا، اذهب وابحث عن أبي!". وبعدها، مثل كونتسانس تعيسة الحظ، أمسك به وأربط معه، لأن لا شيء يستطيع العثور على أبي إن لم أستطع. كيف أنني، جاثيةً على ركبتي، تخيّلتُ نفسي بجوار قبر أبي، ضاربةً الأرض بغضب لأنها تخفيه عنّي. كثيرًا عندما كنتُ أنصت بانتباه لاهث إلى صوت المحيط يختلط بتأوهات أبي، ثم أبكي حتى تخور قواي وأهدأ ويصيبني الدوار، عندما أتذكر كل هذا أسأل نفسي إن كان هذا

t.me/qurssan

جنونًا. في أثناء وجودي في لندن فإن هذه، وأفكار أخرى مريعة تعجز الكلمات عن وصفها، كانت من نصيبي، لكن هذه المعاناة تتلاشى عندما أصبح حرّة، عندما أرى السهل البري من حولي، ونجمة المساء في الغرب، وحينها يمكنني البكاء، البكاء برقة وسلام.

لا تخطئ الظن بي، لم أكن قط مجنونة حقًّا. بل دائمًا ما كنتُ واعية بحالتي عندما تبدو أفكاري الجامحة كأنها تقودي إلى الجنون، وقط لم أكشف عنها لأحد إلّا بالصمت والعزلة. الناس من حولي لا يرون شيئًا من كل هذا. لا يرون سوى فتاة بائسة محطّمة الروح، تتحدث بصوت خفيض ورقيق، ومن أسفل جفنيها المسدلين أحيانًا ما تتسلل الدموع التي تكافح لإخفائها. فتاة تحبّ أن تكون وحيدة، تتحاشى نظرات الآخرين، فتاة لا تبتسم أبدًا، أوه، لا! لا أبتسم أبدًا - وهذا كل ما في الأمر.

حسنًا، نجحتُ في الهروب. تركتُ منزل الوصي على تركتي ولم يسمع عنّي أحد ثانيةً أبدًا، اعتقدوا من الخطابات التي تركتها ورائي والظروف الأخرى التي خططتُ لها أنني أهلكتُ نفسي. بحثوا عني بعدها لذلك باهتمام أقل من المتوقع، وسريعًا ما اختفى كل أثر وذكرى لي. غادرتُ لندن في سفينة صغيرة متجهة إلى ميناء في شمال إنجلترا. والآن وقد نجحتُ في محاولتي، وغدوتُ وحيدة تمامًا عادَ إليّ سلامي النفسي. كان البحر هادئًا والسفينة تمضي قدمًا رويدًا، كنتُ جالسة على سطح السفينة تحت قبة السماء المفتوحة وفكّرتُ في أنني أصبحتُ مخلوقًا مختلفًا. ليست ماتيلدا الجامحة، المهتاجة والأكثر بؤسًا، بل ناسكة مكرّسة للعزلة وتكافح لإبقاء صدرها حرًّا من أي اصطخاب أو يأس مقدس. رداء الراهبات الجميل الذي اخترته، المعرفة أن وجودي ذات كان سرًّا لا يعرفه سواي، العزلة، التي أضحت محتومة من الآن وإلى الأبد، ترعى أفكارًا رقيقة في قلبي الجريح. ومراقبتي بعينين هادئتين لشعاع الشمس يلتمع على الأمواج والطيور

t.me/qurssan

التي يسابق بعضها بعضًا على المياه وبالكاد تلامسها بريشها. كنتُ أيضًا أنام بلا أحلام مزعجة، وأستيقظ منتعشة لأستمتع ثانيةً بحريّتي الهادئة.

في أربعة أيام وصلنا إلى الميناء الذي كنّا نقصده. كان في نيّتي ألّا أبقى على خط الساحل، بل أتابع طريقي على الفور إلى داخل البر. كنتُ قد خططت بالفعل للوضع الذي سأعيش فيه. ينبغي أن يكون منزلاً منعزلاً على سهل منبسط واسع بعيدًا عن أي مساكن أخرى، يمكنني فيه أن أنظر إلى الأفق بالكامل، وأهيم بعيدًا بلا تطفل أو مضايقة من مرأى أقراني المخلوقات. لستُ كارهة للبشر، لكن أن أشعر أن تيار مشاعري الرقيق يعتمد على كينونتي وحدها. عزمتُ أمري على عزلة كاملة. على مرج كئيب يتناثر عليه الحصى، وتنمو عليه الأعشاب القصيرة، وتنمو نباتات الأسَل هنا وهناك بجوار بركة صغيرة. ليس بعيدًا عن كوخي كانت بضعة أشجار صنوبر وهي الأشجار الوحيدة التي تمكن رؤيتها على مدى أميال، كان لديّ ممر مشذّب عبر نباتات الجولق من بابي إلى هذه الغابة الصغيرة، التي من قمة أشجارها ترسل الطيور تحيّتها إلى أشعة الشمس وتوقظني لتأملي اليومي. كان المشهد الذي يطل عليه منزلي مفتوحًا على الأفق بالكامل باستثناء جانب واحد محجوب بغابة بعيدة، تنشر في كل اتجاه آخر طيفها الشاحب على مدّ البصر، على نحو شاسع ومقفر جدًّا. من هنا كان بإمكاني تمييز الشبكة التي تخلقها السُحب وهي تنسج نفسها في كتل سميكة: بإمكاني مراقبة الارتفاع البطيء للسحب الرعدية الثقيلة، ورؤية المحفّة وهي تُحمل بعيدًا عبر السماء، أو تحت أشجار الصنوبر حيث يمكنني الاستمتاع بسكون السماء اللازوردية.

أضحت حياتي هادئة. كانت لديّ خادمة تقضي الجزء الأكبر من اليوم في قرية على بعد ميلين. كانت تسلياتي بسيطة وبريئة جدًّا، أطعم الطيور التي تبني أعشاشها على أشجار الصنوبر أو بين اللبلاب

t.me/qurssan

الذي يغطي حائط حديقتي الصغيرة، وسريعًا ما ألفتني: الأكثر جرأةً من بينها كانت تلتقط فتات الخبز من يديّ وتحطّ على أصابعي لتشدو بأغاني امتنانها. بعد إقامتي بفترة بدأت الحيوانات الأخرى في زيارتي بل إن ثعلبًا كان يأتي كل يوم لحصة الغذاء المخصصة التي يأكلها بعد أن أربّت على رأسه. كانت لدي كذلك كتب كثيرة وقيثارة أسكّن بها آلام روحي عندما يقتلني اليأس، حتى أرتقي بنفسي وصولاً إلى العطف والحب.

الحب! ماذا لديّ لأمنحه الحب؟ أوه، أشياء كثيرة: لديّ ضوء القمر، والنجوم الساطعة، النسائم والأمطار المنعشة، لديّ الأرض بكاملها والسماء التي تغطيها: كل الأشكال البديعة التي زارت خيالي، كل ذكريات البطولة والفضيلة. مع ذلك كان هذا على النقيض تمامًا من حياتي السابقة رغم أنني كنت حينها حبيسة الطبيعة والكتب.

تنطلق وثباتي عبر الحقول، روحي كثيرًا ما تبدو كأنها تمتطي الرياح، وتمتزج بتعاطف مبهج مع الهواء المحيط. حينها إذا كنتُ أهيم ببطء فإنني أبهج نفسي بأغنية عذبة وأحلام يقظة أكثر عذوبة. أشعر بنشوة مقدسة تتقافز من كل ما أراه. أحتسي الفرحة بصحبة الحياة، كانت خطواتي خفيفة، وعيناي رائقتين بالحب الذي يحرّكهما، تجوبان السماوات، وبشعري الطويل منسدلاً تتلاعب به الرياح أمنح جسدي وعقلي للعطف والبهجة. لكن مع الوقت أضحى سيري بطيئًا - عيناني نادرًا ما ترتفعان وكثيرًا ما تمتلئان بالدموع، لا أغاني، لا ابتسامات، لا حركات لامبالية تكشف عن نوايا العقل تجاه ما يحيط به - انحصرتُ داخل نفسي - مخلوق منعزل أناني أتأمل أبدًا في ندمي وآمالي المتلاشية.

حياتي كانت حياة متبطّلة، عديمة الجدوى، كانت كذلك، لكن لا تقل لزهرة السوسن، التي طرحتها العاصفة أرضًا، أن تنهض وتزهر

t.me/qurssan

ثانيةً كما من قبل. فقلبي كان ينزف من جرح موتها، ليس باستطاعتي العيش بطريقة أخرى - كثيرًا في وسط الهدوء الظاهر ما كان يزورني اليأس والسوداوية، كآبة لا يمكن لشيء تبديدها أو التغلب عليها، كراهية الحياة، لامبالاة تجاه الجمال، كل هذا يحتويني في نوبات تكاد تقضي عليّ بقوتها. أبدًا لم أتوقف في اللحظات الأكثر هدوءًا عن الصلاة من أجل الموت. لم أعرف مزاجًا أتمنّع عن استبداله بالعدم طوعًا. وصباحًا ومساءً كانت عيناي ترتفعان نحو السماء، ويداي متشابكتين بإحكام في نشوة الصلاة، وأكرر مع الشاعر:

قبل أن أرى يومًا آخر،

أوه، دع هذا الجسد يقضي ويتلاشى

لكن هذا لا يعني أن أوصم بانعدام النفع، فأنا مؤمنة أنه بالانتحار سأنتهك قانون الطبيعة الإلهيّ، وأعتقد أنني أنجزتُ دوري بالكامل في الاستسلام للمهمة الشاقة في احتمال الساعات والدقائق الزاحفة - في مقاساة أحمال الزمن التي تثقل عليّ على نحو بائس وفي الامتناع عمّا أراه في لحظاتي الهادئة كجريمة، وبذلك أستحق جائزة الفضيلة. مررت بفترات، مريعة، قتلني خلالها اليأس - وراودتني الشكوك بشأن وجود واجبي ذلك وحقيقة الجريمة - لكنّي أرتعش، وأستدير بعيدًا عن الذكرى.

t.me/qurssan

الفصل التاسع

هكذا مضت عليّ سنتان. مئات الأيام تُستهلك يومًا بعد آخر، لم تجلب أي تغيير ظاهري معها، لكن بعض التغييرات المشكّلة ببطء في عقلي مع انسلالي نحو الموت. بدأت في التأمل أكثر، في التعاطف أكثر مع أفكار الآخرين التي يعبّرون عنها في الكتب، في قراءة التاريخ، وفي السعي لأفقد فرديّتي بين الزحام الذي تشكّل أمامي. بذلك، ربما مع تلاشي الإحساس بالمعاناة الوشيكة، أصبحتُ أكثر إنسانيةً. العزلة أيضًا فقدت في نظري بعض سحرها: بدأتُ ثانيةً في التوق للتعاطف، ليس بمعنى أنني كنتُ في أي وقت منجذبة نحو الزحام، لكنّي كنتُ أتوق لصديق واحد يحبّني. ربما تقول إنني أصبحت بالتدريج مهيأة للعودة إلى المجتمع. لا أعتقد هذا. فالتعاطف الذي كنتُ أنشده كان تعاطفًا محضًا نقيًّا، مجرّدًا من أي تأثير من ظروف خارجية في العالم تعيقني لا محالة بفعل مجموع الأشياء التي تختلط أبدًا بأفضل مشاعر ذلك الصديق المتخيَّل. صدّقني، كنتُ حينها أقل ملائمة مما قبل لأي تبادل للأفكار مع أقراني من المخلوقات. عندما غادرتهم كانوا مداومين على

t.me/qurssan

تعذيبي بالطريقة نفسها التي يعذب بها الألم والسقم، شيء ما خارج عن العقل ويثير مرارته، وهو ما كنت أرغب في تجنبه. لكن الآن لي أن أنشد التعاطف، أن أسعى إلى عقد روحي مع روح أحدهم، وتهيئة نفسي لشلالات وافرة من خيبة الأمل والمعاناة، لأنني رقيقة كالنبات الحساس الذي لا يضم سوى الأعصاب. لا أنشد تعاطفًا وعونًا على شكل طموح أو حكمة، لكن عاطفة عذبة ومتبادلة، ابتسامات تبهجني وكلمات رقيقة تعزيني. أنشد قلبًا يمكنني أن أصب فيه أنيني بلا قيد، وأن تنبت، بمباركة الطبيعة السماوية للأرض، ثمرة صالحة من تلك البذرة الطالحة. مع ذلك، كيف لي أن أجد هذا؟ الحب الذي هو جوهر الصداقة ما هو إلا روح ضعيفة نادرًا ما توجد إلا عندما ينعقد رباطه بين مخلوقين خفيفي الروح في لحظات الشباب الأولى، أو عندما تربط بينهما المعاناة والسعي المتبادل، يوهب لبعض الصفوة بلا سعي ولا وعي، يهبط رقيقًا كالندى على مواضع مختارة تقع، أيًا كان جدبها من قبل، تحت تأثيره المثمر الطيب كما في كل النباتات الحلوة، وعندما يشاء، يتلاشى بعيدًا، يهزأ بصلوات مريديه، فهو يُمنح ولا يُطلب.

أعرف كل هذا ولم أنطلق بالتالي طلبًا للتعاطف، لكن هناك على أرضي المنعزلة، تحت سقفي الواطئ الذي يحيط به الخواء من كل جانب، هبط عليّ كشعاع السم في الشتاء لتزيين وإذابة الجليد المنجرف. لكن واحسرتاه، لقد سطعت الشمس على ثمرة متعفنة، لم أزدهر تحت شعاعها لأنني كنت خربة بالكامل وعاجزةً عن الشعور بقوته الطيّبة. كان أبي وذكراه هما حياة حياتي. قد أشعر بامتنان لشخص آخر لكن أبدًا لن يكون باستطاعتي منح حب أو أمل كما منحته، كانت ذلك كل معاناتي، حتى مباهجي كانت ثقيلة الوطأة، يُعجزني الاستمتاع بها. كنتُ كبقعة منعزلة وسط الجبال منغلقة من جميع جوانبها بجرف أسود متحدّر، لا يمكن لشعاع من الحرارة

t.me/qurssan

اختراقه، ولا منفذ منه للهروب إلى حقول تغمرها الشمس. وهكذا كانت الحال رغم أن روح الصداقة قد منحتني السكينة لبعض الوقت لكنها لم تشفني. جاءني كزائر رقيق، ورحل وبالكاد شعرتُ بخسارته. كانت روح الوجود ميّتة داخلي، ولم يدهشني لذلك أنه عندما جاء لم أرحب به مبتهجةً، وعندما رحل لم أَنُحْ بمرارة على هدية السماء - صديق.

كان اسم صديقي وودفيل. سأحكي باختصار حكايته حتى تدركوا مدى برودة قلبي ورفضه لدفء كلماته البليغة وتعاطفه الرقيقة، وكيف أننا، بتعاسته الشديدة هو الآخر، كنّا مهيأين للغاية لمنح العزاء كلانا للآخر، إذا لم أكن قد تصلّبتُ إلى حجارة على يد ميدوسا رأس المأساة. لم تكن مآسي وودفيل قد وقعت في جوهر قلبه كمآسيّ، كان حزنه عاديًا، ليس ذلك الذي يدّمر لكن ينقّي القلب، ومنه، بعد أن تعبر ظلال الحزن وتمضي، ينبثق شعاع أكثر بهاءً وسعادةً مما قبل.

كان وودفيل ابنًا لقسّ فقير، وتلقّى تعليمًا تقليديًا. كان واحدًا من هؤلاء القلة القليلة ذات الحظ السعيد منذ ميلاده، الذين منحهم الحظ هبات الفكر والشخصية بوفرة لا تعرف حدودًا، والذين تحت حماية الحظ الفريدة، لا يستطيع أي نقص مهما كان ضئيلاً، ولا خيبة أمل مهما كانت عابرة أن تمسّهم. بدا أن الحظ السعيد قد شكّل عقله من ذلك التفوق الذي لا يمكن لأي فضلات أن تلوّثه، وقدرة على الفهم لا يمكن لأي خطأ أن ينحرف بها. كانت عبقريته متجاوزة للحدود، وعندما ظهرت كنجم ساطع في الشرق استدارت إليه الأعين كلها بإعجاب. كان شاعرًا. وهذا المسمّى قد انحدر كثيرًا حتى لم يعد قادرًا على أن يصف بالفعل ما كان عليه وودفيل. كان كالشعراء القدماء الذين توّجتهم جنيّات الشعر في مهدهم، والذين على شفاههم يتغذّى النحل. في سيره بين الرجال الآخرين كان يبدو كأنه محاط بهالة سماوية تفصله وترفعه عنهم. كان جماله الذي لا

t.me/qurssan

مثيل له، والنار الساطعة في عينيه، وكلماته ذات اللكنة الغنية التي تلفُّ المستمع بصمت ودهشة منتشية، قد جعلته يتسامى عاليًا فوق كل الآخرين، حتى بدوا كأنهم مجرد قساوسة يتلون صلوات امتيازه السامي.

كان مهيبًا منذ شبابه. أحبّه الجميع، وأبدًا لم يصبه ظلٌّ من حسد أو كراهية حتّى من أكثر العقول وضاعةً. كان، كمصدر بهجة فريدة للآلهة، محاطًا ومسوّرًا بألوهيته الخاصة، بحيث لا شيء سوى الحب والإعجاب يمكنه الاقتراب منه. كان قلبه بسيطًا كطفل، لا تشوبه شائبة العجرفة أو الخيلاء. اختلط بالمجتمع جاهلاً بتفوقه على أقرانه، ليس لأنه كان يقلل من قيمة نفسه، لكن لأنه لم يكن واعيًا بدونية الآخرين. بدا غير قادر على تصوّر المدى الكامل للقوة التي تخلقها الأنانية والرذيلة في العالم، عندما عرفته، رغم أنه كان يعاني من خيبة أمل في أعز آماله، لكنه لم يختبر أي شعور نابع من وضاعة الرجال أو حبّهم لذاتهم، كان موضعه عاليًا جدًّا على أن يسمح لمعاناته بأن تتحول إلى قساوة قلب، وبعيدًا جدًّا على أن يعرف معنى نكران الجميل والأنانية المتوحشة، إنها واحدة من بركات الحظ المعتدل، أنه بمنع الحائز على الحظ من منح جمائل مالية فإنه يمنعه أيضًا من السقوط في متاهة الضعف أو الشرّ البشري - أن تهب شيئًا لأقرانك من البشر فهذا سمة إلهية - وبهذا فهي لا تلائم الفانين، والمانحين كآدم وبروميثيوس، كان لزامًا عليهم أن يدفعوا غرامة الارتقاء فوق طبيعتهم بأن يكونوا شهداء لتفوقهم. كان وودفيل خِلْوًا من كل تلك الشرور، وإن ظهرت فيه أمثلة واهية فإنه لا يلاحظها بل تمر في مسيره كما ينساب ملاك بأقدام مجنحة عبر الأرض لا تعيقه كل تلك العقبات الصغيرة التي نتعثّر فيها نحن ذوي الأصل الأرضي. كان مؤمنًا بألوهية العبقرية ودائمًا ما عارض الإنكار المتشدد من جانب المنتقدين والمتشككين التافهين الذي يسعون إلى إحالة كل البشر إلى

t.me/qurssan

مستواهم البائس - "سأضع مقارنة علمية"، كان يقول، "بطريقة د. داروين، إذا شئت - في نظري فإن الأخطاء المزعومة للعباقرة من البشر هي كانحرافات النجوم الثابتة. فالأمر ليس سوى بُعدنا الشاسع عنها ووسائل القاصرة في الاتصال ما يجعلها تبدو كأنها تتحرك، في الحقيقة فإنها دائمًا ما تبقى جامدة، مركزًا مهيبًا، يمنحنا درسًا راقيًا عن التواضع إن كان لنا أن نتلقّاه".

قلتُ إنه كان شاعرًا، عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره نشرَ أول قصيدة له، قصيدة هتفت لها الأمة بكاملها بحماس وابتهاج. دائمًا وأبدًا ما كان نجم طالعه الطيب يسطع عليه، شهرة لم تُصنع من قبل قط بهذه السرعة، كانت شهرة كونية. بالغت الجماهير في مدح وإطراء القصائد نفسها التي شكّلت أعجوبة الحكمة في خزانته، لم يظهر صوت منشقٌ واحد.

في هذا الوقت، في ذروة مجده، كان أن تعرّف إلى إلينور. كانت وريثة شابة ذات جمال باهر تعيش تحت كنف القيّم عليها، من اللحظة التي شوهدا فيها، بديا كأن كلا منهما خُلِق للآخر. لم تكن إلينور تتمتع بعبقرية وودفيل لكنها كانت نبيلة وكريمة النفس، منتشية بشبابها وبالحب التي تثيره في كل مكان بشأن معرفتها التي تقتصر على العفّة والاستقامة. كانت محبوبة، طرائقها صريحة وبسيطة، عيناها الزرقاوان تسبحان في لمعة لا تتحقق إلّا باجتماع العاطفة مع الحكمة.

كانا مخلوقين لبعضهما، وسريعًا ما وقعا في الحب. وودفيل للمرة الأولى يشعر ببهجة الحب، وإلينور ثملة بامتلاك قلب شاب بديع ومتألق بين أقرانه الرجال. هل لأي شيء بخلاف البهجة الصافية أن يتدفق من اتحاد كهذا؟

كان وودفيل شاعرًا - كان موضع سعي من كل حفلات الأنس والسمر، والأعين جميعها تستدير نحوه عندما يظهر، لكنه كان ابن

t.me/qurssan

كاهـن فقـير في حـين أن إلينـور وريثـة ثريّـة. كان القيّـم عليهـا مستاءً مـن عاطفتهـما المتبادلـة، كانـت جـدارة وودڤيـل واضحـة جـدًّا بمـا يمنـع إبـداء أي اعتراضـات تافهـة بسـبب ثروتـه المتواضعـة، لكـن وصيـة أبيهـا التـي وضعهـا في أثنـاء احتضـاره لم تكـن تسـمح بتزويجهـا قبـل بلوغهـا سـن الرشـد، كـشرط لحصولهـا عـلى ثروتهـا. كانـت قـد بلغـت لتوّهـا العشريـن مـن عمرهـا، واضطـرت هـي وعشـيقها إلى الانصيـاع لهـذا التأخـير. لكنهـا كانـا معًـا وبـدت سـعادتهما كالفـردوس، يسـتذكران معًـا، يضعـان الخطـط لمهـام المسـتقبل، يحتسـيان الحـب والبهجـة كل منهـما مـن عينـي وكلـمات الآخـر، حتّـى إنهـما بالـكاد كانـا يشـتكيان مـن تأخـير اتحادهـما الكامـل. ووڤيـل زهـرة أبديـة في مجـده، وإلينـور أكـثر جـمالاً وحكمـة في ظـل دروس معشـوقها المتحقـق.

في شـهرين سـتُتِم إلينـور العـام الحـادي والعشريـن مـن عمرهـا، كل شيء مهيـأ لاتحادهـما. كيـف لي أن أحـكي وقائـع الكارثـة التـي حلـت بتلـك البهجـة الفيّاضـة، لكـن الأرض لـن تكـون الأرض، سـتغطيها المحـن والأحـزان إذا تكّبـد زوج كهـذا مـن المخلوقـات الملائكيـة عـبء الوجـود مـن أجـل بعضهـما، ابحـث عـبر العـالم ولـن تجـد سـعادة مثاليـة كتلـك التـي كان زواجهـما ليحققهـا لهـما، لا بـدّ مـن أن ثـورةً مـا قـد نشـبت في نظـام الأشـياء المترسّـخة بيننـا نحـن سـكان الأرض البائسـين حتّـى توجـد تلـك البهجـة المكتملـة. لا بـدّ مـن أن سلسـلة الـضرورات، التـي تجلـب البـؤس دومًـا، كانـت قـد انكـسرت، لكـن القـدر الخبيـث الـذي يترأسـها لم يكـن ليسـمح بهـذا الانتهـاك لقوانينـه الأبديـة. لكـن لمـاذا ينبغـي أن أشـكو مـن هـذا؟ كانـت المأسـاة جوهـري، ولا شيء سـوى مـا هـو تعيـس يسـتطيع الاقـتراب منّـي، إذا كان وودڤيـل سـعيدًا فلـم أكـن أبـدًا لأتعـرّف إليـه. وهـل بإمـكاني، أنـا مـن تغـذت عـلى الدمـوع عـلى سـنوات، واسـتظلت بنـدى الأحـزان، أن أمتنـع عـن سرد حكايـات المحنـة والمـوت؟

t.me/qurssan

كان وودڤيل مضطرًا إلى الانطلاق في رحلة إلى الريف في أمرٍ ما، وأعاقه ذلك يومًا بعد آخر في غياب مضجر عن عروسه الجميلة. تلقّى خطابًا منها تقول فيه إنها مريضة بعض الشيء، وتخبره أن يهرع إليها، وأن في عينيه ستجد العافية وأن صُحبته ستكون دواءها الشافي. استمر غيابه لثلاثة أيام ثم أسرع إليها. استشعر قلبه، لا يعرف لماذا، مقدم محنة، لم يكن قد سمع منها ثانيةً، كان يخشى تدهور حالتها، وجعله الخوف مضطربًا وقلقًا في انتظار لحظة رؤيتها تقف أمامه ثانيةً ترتع في الصحة والجمال، لأن صوتًا خبيثًا داوم على الهمس له، "لن تراها أبدًا كما كانت".

عندما وصلَ إلى منزلها كان كل شيء غارقًا في الصمت، اتخذ طريقه عبر غرف كثيرة، في إحداها رأى خادمة تبكي بحرقة، كان ممتقعًا من الخوف وبالكاد تمكّن من السؤال، "هل ماتت؟" وأنصت فحسب إلى الإجابة المريعة، "ليس بعد". أصابته هذه الكلمات الصاعقة بخوف أقل مما توقعه، أن يعلم أنها ما زالت على قيد الوجود، وأن الأمل ما زال قائمًا، منحه بعض الارتياح. تذكّر كلمات رسالتها واستغرق في الفكرة الجامحة أن قبلاته التي تتنفس الحب والحياة قد تنفثُ روحًا جديدة فيها، وبقربه منها قد لا تموت، وأن وجوده بمثابة تميمة حظ حياتها.

أسرع إلى غرفتها حيث تقبع مريضة، خداها يلتهبان بالحمّى، ومع ذلك كانت عيناها مطبقتين وكانت هي فاقدة الوعي ظاهريًا. احتواها بين ذراعيه، طبع قبلات لاهثة على شفتيها الملتهبتين، ناداها بصوت غارق في المعاناة المقهورة بأرقّ الأسماء، "ارجعي يا إلينور، أنا معكِ، حياتك، حبّك. ارجعي، يا أغلى إنسان، أين وعدكِ لي بهذه الهدية، أنني سأجلب لكِ الصحة. فلتحي روحك العذبة من جديدة، لا يمكنك أن تموتي وأنتِ بجواري، ما هو الموت؟ ألا أراكِ ثانية؟ أن أفترق عن جزء من ذاتي، من دونه لا يعد لديّ أي ذكرى أو مستقبل؟

t.me/qurssan

إلينـور تمـوت! هـذه جنـون وأكـثر أشـكال اليـأس بؤسًـا، لا يمكنـكِ أن تمـوتي وأنـا بقربـك".

وثانيـةً قبّـل عينيهـا وشـفتيها، وشـكّل فوقهـا شـكلاً هامـدًا بـلا حيـاة مـن الألم، محدّقًـا في محيّاهـا الجميـل مـا زال رغـم تبدّلـه، مراقبًـا كل خلجـة ضعيفـة، وكل لـون متغـيّر يـدل عـلى حيـاة مـا زالـت باقيـة رغـم أنهـا عـلى وشـك الرحيـل. لوهلـة اسـتعادت وعيهـا وتعرّفـت عـلى صوتـه، ابتسـامة، ابتسـامة أخـيرة جميلـة، تلاعبـت عـلى شـفتيها. جلـس بجوارهـا، سـاهرًا ومترقّبًـا طـوال اثنتـي عـشرة سـاعة، وبعدهـا ماتـت.

t.me/qurssan

الفصل العاشر

وكان أن رأيته للمرة الأولى بعد ستة أشهز من هذه الخاتمة المفجعة لآماله التي احتضنها طويلاً. كان قد انعزل إلى جزء من الريف لا يعرفه أحدٌ فيه حتّى يتمكن من الانغماس بسلام في أحزانه. أضحى العالم بكامله، بعد موت محبوبته إليانور، وقد تغيّرَ تمامًا بالنسبة إليه، ولم يعد قادرًا على البقاء في المكان الذي طالما رآها فيه، والذي فيه امتزجت صورتها بالآمال الأكثر انتشاءً التي أضاءت كل ما حوله بنور البهجة الذي تحوّل الآن إلى ظلام أكثر سوادًا من الليل الحالك لأنها، شمس حياته، قد غربَت للأبد.

استمر في حياته لفترة من الزمن ممتنعًا دومًا عن النظر إلى ضوء السماء، بل مكفنًا عينيه بظلام أبديٍّ بعيدًا عن كل ما قد يذكّره بما رآه، لكن مع مرور الزمن عليه وتخفيفه لأحزانه كطفل حقيقي للطبيعة، كان يسعى إلى بهجة مفاتنها بحثًا عن العزاء لتعاسته. جاء إلى ناحية من الريف كان مجهولاً فيها بالكامل، على أمل أن يجد

t.me/qurssan

عزلة عميقة لا يتحدث فيها إلّا مع قلبه وحده. وجدَ العزاء لحزنه المضطرب في نسائم السماء وفي أصوات المياه والأشجار. أصبح مغرمًا بركوب الخيل، هذه الرياضة كانت تلهي عقله وتسمو بروحه، على حصان سريع كان بإمكانه لوهلة أن يقتنص الراحة من الصورة التي تتبعه كظلّه، إليانور على فراش الموت، ملامحها العذبة متغيّرة، والروح الحلوة التي طالما نُفخت فيها الحياة تذبل تدريجيًّا حتى الفناء. لأشهر طويلة حاولَ وودفيل بلا جدوى طرد هذه الذكرى المريعة، ما زالت تتشبث به حتى أصبحت عبئًا لا يطاق على روحه المرهقة، لكن على ظهر خيله، تنقلب هذه التعويذة التي تمسك بتلابيبه، وتجعله ينغمس في التفكير في عروسه الضائعة، في تخيّلها متألقة في جمالها، يصبح بإمكانه أن يسمع صوتها، في تصوّرها "صيّادة غابات تمضي بجواره"، في حين تتألق عيناه وهو يفكّر محدّقًا في صورتها العزيزة. كنتُ قد رأيته مرات عدة يمضي بخيله عبر السهل وشعرتُ بالغضب من تلويث عزلتي. مضى وقت طويل منذ تحدثتُ إلى أي شخص بخلاف المزارعين لحدّ أنني شعرتُ بإحساس مزعج من كوني موضع تحديق شخص ذي طبقة أعلى. خشيتُ أيضًا أنه ربما يكون شخصٌ ما رآني من قبل، وبالتالي قد يتعرّفني، وقد يكتشف خداعي وبذلك أُسحب عائدة إلى حياة تعذّبني بأسوأ مما تحملته من قبل. كانت هذه مخاوف مريعة سرعان ما طاردتني في أحلامي.

كنتُ جالسةً ذات يوم على حافة مجموعة من أشجار الصنوبر عندما مرَّ بي وودفيل على ظهر خيله. فور أن رأيته نهضتُ من فوري للهروب من نظره بالدخول بين الأشجار. تسبب نهوضي في إجفال فرسه، شبَّ عاليًا ثم اندفع فجأة وألقى الفارس أرضًا. بعدها عدى الفرس بسرعة عبر السهل وبقي الغريب على الأرض مذهولاً من سقوطه. لم يُصَب بأذى كبير، سرعان ما انتعش بقليل من الماء

t.me/qurssan

العـذب. صعقـتُ بمـرأى جمالـه المذهـل، وفي أثنـاء حديثـه إليّ ليشـكرني، فـإن النغمـة العذبـة لكـن الحزينـة في صوتـه جلبـت الدمـوع إلى عينـيّ.

تحدثْنـا قليـلاً حينهـا، لكـن في اليـوم توقـف ثانيـةً عنـد كوخـي وتدريجيًـا نمـت الألفـة بيننـا. كان مـن الغريـب بالنسـبة إليـه أن يـرى أنثـى في ذروة شـبابها، لم أكـن قـد أتممـتُ العشريـن بعـد، تنتمـي كـما هـو واضـح لصفـوة المجتمـع وتتمتـع بـكل إنجـازات التعليـم الممتـاز، تعيـش بمفردهـا عـلى سـهل منعـزل - فتـاة كان جبينهـا مختومًـا بطابـع الحـزن بقـوة، وكلماتهـا وحركاتهـا تفصـح عـن حقيقـة أن روحهـا تنـأى عنهـا، لكنهـا منكبّـة عـلى أفـكار أخـرى بعيـدة، مـآسٍ سـاحقة ومريـرة. كنـتُ أيضًـا أرتـدي رداء عجيبًـا يشـبه رداء الراهبـات يـدل عـلى أننـي لم أنسـحب إلى العزلـة بدافـع الـضرورة، لكننـي انغمسـت باختيـاري في رفاهيـة الحـزن، والاعتـزال التوهّمـي.

سرعـان مـا انـصرف إليّ باهتمامـه، وأحيانًـا مـا كان ينـسى حزنـه حتـى يجلـس بجـواري ويحـاول التسريـة عنّـي. لم يكـن ليعجـز عـن التسريـة حتّـى عـن فتـاة اختـارت الانغـلاق عـن العـالم بكاملـه، فتـاة كان المـوت هـو منتهـى آمالهـا، تعيـش مـع الراحلـين فحسـب. جـمال شـخصه، وحديثه المتوهّـج بالخيـال والعاطفـة، أبيـات الشـعر التـي تبـدو كأنهـا تتـدلى عـلى شـفتيه وتجعـل الهـواء نفسـه صامتًـا ومنصتًـا لـه، كان لـكل ذلـك سـحر لا يمكـن لأحـد مقاومتـه. كان أصغـر سـنًا، أقـل إنهـاكًا، أكـثر هـدوءًا مـما كان عليـه أبي، ولم يذكّـرني بـه بـأي نحـو، كان يعـاني مـن حـزن مبـاشر، أي مجـرد تأثـيره الرقيـق، وليـس اسـتدعاءً للعواطـف الخاملـة حتـى تفعـل فعلهـا، وبـدا أنـه يخفـي عنّـي فحسـب مـا كان لـه أن يصعقنـي. عندمـا كنّـا معًـا كنـتُ أتحـدث قليـلاً، مـع ذلـك كان عقـلي الأنـاني أحيانًـا مـا يُحمـل بعيـدًا بفعـل التتابـع السريـع لأفـكاره، حينهـا كنـتُ أرفـع عينـيّ بتألـق لحظـي، حتـى تظهـر ثانيـةً الذكريـات التـي لا تمـوت أبـدًا ونـادرًا مـا تنـام، وحينهـا تبهتـان ثانيـةً بفعـل الدمـوع.

t.me/qurssan

طالما حاول وودفيل إرشادي إلى مسألة التأمل في ما هو جميل وسعيد في العالم. عقله نفسه كان ميّالاً بطبعه إلى إيمان قديم بالخير أكثر من إيمانه بالشر، وذلك الشعور الذي لا بدّ من أنه يبهج البائسين كان يسطع دومًا من كلماته. يحبُ التحدث عن القدرات الرائعة للإنسان، عن حالته الراهنة وعن آماله، عمّا كانه وما سيكونه، وعندما يعوزه العقل، كان خياله، كما لو كان ملهمًا، يسكب الضوء على الغموض الذي يحجب الماضي والمستقبل. كان يحبُ التفكير طويلاً في كيف كانت حالة الأرض قبل أن يعيش الإنسان عليها، وكيف ظهر الإنسان أول مرة وأصبح تدريجيًا هذا المخلوق العجيب، المعقّد، لكن كما قال، العظيم، الذي هو عليه اليوم. يُغرق الأرض بإبداعاته ويشكل بقوة عقله عالمًا آخر أكثر جمالاً من الإطار المرئي للأشياء، عالم بكامله نجده في كتابته. خلقٌ جميل، يصفه وودفيل، له أن يزعم التفوق على نموذجه، لحدّ أن الخير والشر في داخله يمكن الفصل بينهما على نحو أكثر سهولة، الخير يُكافأ بالطريقة التي يحبّها الإنسان، والشر يُعاقَب كما ينبغي لكل الأشياء الشريرة أن تُعاقَب، ليس بالألم، المثير للاشمئزاز في نظر كل المحبّين للبشرية، لكن بالغموض الهادئ، الذي يحرم الأشرار ببساطة من خصالهم المؤذية، لماذا تقتل الأفعى إذا كان بإمكانك نزع أنيابها؟

أبقتني شعرية لغته وأفكاره هذه، التي تعجز كلماتي عن وصفها كما ينبغي، أسيرةً لحديثه. كانت بهجةً سوداوية بالنسبة إليّ أن أنصت إلى كلماته الملهِمة، أن أمسك لوهلة بضوء عينيه لأشعر بتعاطف عابر، وبعدها أستيقظ من الوهم، لأدرك في النهاية أن كل هذا كان لا شيء - مجرد حلم أو ظل - فلا حقيقة أمامي، كان أبي قد هجرني للأبد، تاركًا لي مجرد ذكريات وضعتْ حاجزًا أبديًا بيني وبين أقراني من المخلوقات. كنتُ بالفعل قرينة اللاشيء. أما هو، وودفيل، فكان ينتحب على فقد عروسه، وآخرون يبكون الأشكال المتنوعة من المآسي

t.me/qurssan

التي تحلّ بهم، لكن العار والذنب كانا ممتزجين داخلي بالأقدار، عاطفة مقيتة وغير شرعية صبّت سمومها في أذنيّ وغيّرت دمي بالكامل حتى لم يعد المجرى العطوف الذي يدعم الحياة لكن نافورة باردة من المرارة فاسدة من منبعها. لا بدّ من أن فيض الجنون هو ما يجعلني أتخيّل أنني أبدًا لن أكون غير إنسانة وحيدة، مشطوبة من الإنسانية، بلا صلة تجاه أي رجل أو امرأة، إنسانة بائسة لفظتها الطبيعة من محرابها.

أحيانًا ما كان وودفيل يتحدث إليّ عن نفسه. يحكي عن تاريخه القصير من السعادة والمحنة ويتأمل بانفعال في حبّه وحب إليانور المتبادل. "كانت"، قال لي، "الرؤية الأكثر سطوعًا التي ظهرت على الأرض، شيء ما كان في ملامحها الواضحة، في صوتها، وفي كل حركة من جسدها الرقيق، أشعرني بالهزيمة أمامه، كما لو أنه مخلوق سماويّ عازمٌ على الامتزاج بي في وصال أكثر حلاوةً مما عرفه أي رجل من قبل. كان الحزن يهرب أمامها، وابتسامتها تبدو كأنها تتمتع بتأثير كالنور الذي يشرق لاجتثاث ظلام العقل بكامله. لم تكن تلك الابتسامات تذهب وتجيء في شكل من أشكال الجمال الإنساني، لكن كشعاع شمس على بحيرة، مضيء حينًا ومعتم حينًا، يحلق بخفة وسرعة إن حاولت الإمساك به، ويطوي نفسه للأبد في قلبك. رأيتُ هذه الابتسامة تتلاشى للأبد. واحسرتاه! أبدًا لم أصدّق أنها إليانور من ماتت حقًا، حتّى عندما تحدثتُ إليها ولم ترفع عينيها المعتمتين نحوي، ولوهلة، بلا مثيل على الأرض، أكثر جمالاً من شعاع شمس، أكثر رقة، وأسرع من ريش الطيور المحلقة، متلألئة كالبرق ومثله تمنح النهار إلى الليل، ومع ذلك رقيقة وخافتة، جاءت تلك الابتسامة، ثم رحلت، وحينها انتهت البهجة كلها بالنسبة إليّ".

هكذا كانت أحزانه، أو بالأحرى الأشكال المنسوخة من الطبيعة التي تسكن عقله بجمال أكبر مما هي عليه في الحقيقة، تشغل

t.me/qurssan

أحاديثنا في حين أحجب أنا أحزاني بكتمان حذر. وإذا أظهر هو لوهلة أيّ فضول، فإن عينيّ تخمدان، وصوتي يتلاشى ومعاناتي الواضحة تدفعه بسرعة إلى محاولة إبعاد الأفكار التي أيقظها، مع ذلك فطالما مزج العزاء في حديثه، محاولاً التخفيف من يأسي عبر إظهار التعاطف والشفقة العميقان. "كلانا تعيس -" يقول لي حينها، "أخبرتك عن حكايتي السوداوية وبكينا معًا تلك الروح العذبة فحسب التي هجرتني بقسوة، لكنكِ تخفين أحزانك، لا أطلب منكِ أن تكشفي عنها، لكن أخبريني إن كان لي أن أمنحك العزاء. يبدو الأمر لي مغامرة وحشية أن أجد في هذا السهل المهجور شخصًا مثلكِ منعزلاً تمامًا، فتاة شابّة ومحبوبة، بسلوك راقٍ وجذّاب، مع ذلك هناك سوداويتك الراسخة، وشيء آخر، لا أعرف ما هو، في عينيك المعبّرتين يبدو أنه يفصلك عن نوعك البشري، أنتِ ترتجفين، اعذريني، أستعطف لكيلا يسعني سوى التعبير، هذه المرة على الأقل، عن الاهتمام الحيّ الذي أشعر به تجاه أقدارك.

"لا تبتسمين أبدًا، صوتك منخفض، وتنطقين كلماتك كما لو كنتِ خائفة من الصوت الخافت التي تصدره، تعبير الحزن الشديد والمريع الذي لا يتلاشى أبدًا من ملامحك. فقدت أنا للأبد أجمل رفيق قد يحظى به أي رجل، رفيق بدا كأنه يتمتع بروح أعلى سموًّا ضلّ طريقه بصدفة غريبة ما بيننا نحن المخلوقات الأرضية، الذين لا ينتمي إليهم. ومع ذلك أبتسم، وأحيانًا ما أتحدث ناسيًا تقريبًا التغيّر الذي حلّ بي. لكن محيّاكِ الحزين لا يتبدّل أبدًا، يخفق قلبك وتطلقين أنفاسك، ومع ذلك يبدو أنكِ تنتمين إلى عالم آخر، وأحيانًا، اعذريني على أفكاري الجامحة، عندما تلامسين يدي يدهشني أنني أجد يدك دافئة رغم انطفاء نار الحياة كما يبدو داخلك.

"عندما أتطلع إليكِ، إلى دموعك التي تسفحينها، نظرة الاستنكار العذب التي تتحملين بها أسئلتي، التعاطف العميق الذي يحمله

t.me/qurssan

صوتـه عندمـا أتحـدث عـن أحـزاني الأقـل وطـأة، كل هـذا يزيـد مـن اهتمامـي بأمـرك. تقفـين هنـا بـلا مـأوى. ألقيـتِ بنفسـك خارجـةً مـن بيننـا، مـن أجـل أن تـذوي عـلى هـذا السـهل الوحـشي، محرومـة مـن الحـب والعـون، لا بـدّ مـن أن كارثـة مريعـة مـا قـد حلّـت بـكِ. لا تبعـدي طرفـكِ عنّـي، لا أطلـب منـك أن تكشـفي تلـك الكارثـة، لا ألتمـس منـكِ سـوى أن تنصتـي إليّ وتعتـادي عـلى صـوت العـزاء والعطـف. إن كانـت الشـفقة، والإعجـاب، والعاطفـة الرقيقـة بإمكانهـا أن تفصـل بينـكِ وبـين اليـأس، فاسـمحي لي أن أحـاول. لا يسـعني وأنـا أرى نظرتـك الغارقـة في الحـزن إلّا أن أحـاول جاهـدًا أن أسـتردّك إلى مشـاعر أكـثر سـعادة. ارفعـي جبينـك، واطـردي السـوداوية المتجّهمـة مـن نظرتـك، اسـمحي لصديـق، مخلـص وعطـوف، وهـذا مـا سـأكونه، أن يمنحـك بعـض الراحـة، اسـتراحة قصـيرة مـن معاناتـك.

"لا تظنّـي أننـي أقتحـم ثقتـك عنـوةً، لا أطلـب سـوى صـبرك. لا تنظـري أبـدًا نظـرات حـزنٍ ولا تنطقـي بـه أبـدًا، انطقـي بكلمـة واحـدة مـن الشـكوى المريـرة وسأسـتنكرها بعتـاب رقيـق وأصـبّ عليـكِ ترياق العطـف. عليـكِ ألّا تبعديني عـن كل تواصـل معـكِ، لا تخبريـني بسـبب حزنـك لكـن انطقـي فحسـب الكلـمات، (أنـا تعيسـة)، وحينهـا ستشـعرين بالارتيـاح كـما لـو أنـكِ، بعـد أن أصبحـتِ منعزلـة عـن كل تواصـل، قـد دخلـتِ بتعويـذة سـحرية مـا ثانيـةً إلى مملكـة التعاطـف الإنسـاني. ألتمس فيـكِ أن تصدّقـي مجاهـراتي الأكـثر صدقًـا وأن تتعامـلي معـي كصديـق قديـم ومجـرّب، عاهديـني عـلى عـدم نسـياني أبـدًا، عـلى عـدم إبعـادي بـلا سـبب، لكـن حـاولي أن تمنحينـي الحـب كـما لـو كنـتُ الإنسـان الـذي يكـرّس كل طاقاتـه مـن أجـل إسـعادك. امنحينـي اسـم صديـق، سـأنجز واجبـاتي، وإذا تشـكّل الحـزن والشـكوى لوهلـة، فاسـمحي لي أن أكـون بالقـرب حتّـى أتحـدّث بالسـلام إلى روحـك المهتاجـة".

t.me/qurssan

أكـرر هنـا سرد محاولاتـه لإقناعـي بكلـمات واهيـة ولا يمكننـي في الوقـت نفسـه منحـك النغمـة والإيمـاءات التـي كانـت تملؤهـا بالحيـاة. كالمطـر المنعـش عـلى تربـة جـرداء أحيتنـي كلماتـه مـن جديـد، ورغـم أننـي أبقيـتُ عـلى سـبب أحـزاني سرًّا، قـادني إلى صـبّ شـكواي المريـرة وإلى إلبـاس محنتـي كلـمات الغضـب والحماسـة. وبـكل الطاقـة التـي يمتلـئ بهـا حـزني البائـس أخبرتـه بسـقوطي مـن النعيـم إلى المأسـاة في لحظـة واحـدة، كيـف أننـي لا أجـد أي بهجـة، أي أمـل، أن المـوت مهـما كان مريـرًا هـو الخاتمـة التـي أتـوق إليهـا لـكل آلامـي، المـوت، الهيـكل العظمـي، كان جميـلاً كالحـب. لا أعـرف السـبب لكننـي وجـدتُ مـن العـذب أن أنطـق بهـذه الكلـمات عـلى مسـمع آذان بشريـة، ورغـم أننـي طالمـا استخففتُ بالعـزاء، شـعرتُ بالبهجـة أن أراه يُمنـح لي برقـة وعطـف. كنـت أنصـت بهـدوء، وعندمـا يتوقـف هـو عـن الحديـث لوهلـة، سرعـان مـا أسـتأنف صـبّ مأسـاتي بكلـمات تُظهِـر كـم كانـت جروحـي عميقـة ومسـتعصية عـلى أي عـلاج.

لكـن الآن أيضًـا بـدأت في جنـي ثمـار عزلتـي المطلقـة. أصبحـتُ غـير مهيـأة لأي تواصـل بـشري، حتّـى مـع وودفيـل المخلـوق الأكـثر رقـةً وتعاطفًـا عـلى ظهـر الأرض. أضحيـتُ صعبـةَ الإرضـاء وغـير عقلانيـة، مزاجـي قـد فسـدَ بالكامـل. أناديـه بصديقـي لكننـي أنظـر إلى كل مـا يفعلـه بعينـين غيورتـين. إذا لم يـزرني في السـاعة المحـددة يقتلنـي الغضـب، الغضـب الشـديد، وأخـبره أنـه إن كان حقًّـا يشـعر باهتـمام ناحيتـي، فهـو اهتـمام بـارد، ولا يمكـن أن يناسـبني، أنـا المخلـوق البائـس المُنهـك، تتطلـب تعاسـته المتأصلـة أكـثر بكثـير مـما يمكـن لقلبـه الدنيـوي أن يمنحـه. عندمـا أتخيّـل لوهلـة أن طريقتـه بـاردة كنـتُ أقـول لـه بتهويـل - "كنـتُ أحيـا في سـلام قبـل مجيئـك، لمـاذا أقلقـت عزلتـي؟ منحتنـي رغبـات جديـدة والآن تعبـث بي كـما لـو كان قلبـي ملـكًا لـك بكاملـه، كـما لـو أننـي في الحقيقـة لسـتُ حَمَـلاً مجـزوز الصـوف ملقـى عـلى جانـب التـل الأجـرد، تعذّبـه

t.me/qurssan

أي هبة ريح. لم أكن أتمنى صديقًا، ولا تعاطفًا، تجنبتك، تعرف أنني فعلت، لكنك فرضت نفسك عليّ ومنحتني تلك الرغبات التي ترى بانتصار أنها تمنحك سلطانًا عليّ. أوه، السلطان الشجاع لريح الشمال اللاذعة التي تجمّد الدموع بعد أن تسببت في سفحها! لكنني لن أتحمل هذا، ارحل، ستشرق الشمس وتغرب كما كانت قبل مجيئك، وسأجلس بين أشجار الصنوبر أو أهيم على السهول باكية وشاكية بلا رغبة في أن تنصت إليّ. قسوة منك، قسوة مريعة، أنا تعاملني أنا من ينزف من كل ناحية بهذه الطريقة الفجّة".

وحينها، في إجابته على كلماتي الحادة، رأيت وجهه ينحني نحوي بشفقة حيّة:

Gli occhi drizzo ver me con quel sembiante

Che madre fa sopra figlioul deliro

ألقتْ عينيها عليّ بالنظرة نفسها

نظرة أمٍّ إلى ابنها المعربد

(الكوميديا الإلهية، الفردوس)

بكيتُ وقلت، "أوه، سامحني! أنت شفوق وعطوف لكنني غير مهيأة للحياة. لماذا عليّ أن أعيش؟ أن أجتر الساعات بعد الساعات؟ أن أرى الأشجار تتمايل بفروعها بلا توقف؟ أن أشعر بالهواء؟ وأن أعاني في كل ما أشعر به أشدّ الآلام؟ جسدي قوي، لكني روحي تغرق تحت وطأة الكمد الحيّ. الموت هو الهدف الذي أصبو إليه، لكن، واحسرتاه! لا أرى حتّى نهاية الطريق. هل لك أن تخبرني، صديقيَ العطوفَ، عن كيفية الموت بهدوء وبراءة، وحينها سأباركك. كل ما أصبو إليه، أنا المخلوق البائس، هو الموت بلا ألم".

t.me/qurssan

لكـن كلـمات وودفيـل كان تحمـل السـحر في داخلهـا، وعندمـا يبـدأ حديثـه بالإشـفاق الأكـثر عذوبـة، كان يسـمو بي درجـاتٍ خـارج نفـسي وخـارج أحـزاني حتّـى أتعجـب مـن أنانيتـي هـذه، لكنـه يغـادر، وحينهـا يعـاودني اليـأس، ويبـدأ مجهـود العـزاء مـن جديـد دائمًـا. كثـيرًا مـا تمنيـتُ غيابـه بالكامـل، لأننـي اكتشـفت أننـي اسـتنفدت طـرق الحيـاة بسـبب العزلـة الطويلـة، رغـم أنـه كان بإمـكاني احتـمال حـزني بعـد أن اعتـدت عليـه، وتنـاول الرشـفة اليوميـة المُـرّة بدرجـة مـا مـن الصـبر، مـع ذلـك غـدوتُ غـير مهيـأة لأقـل نـوع مـن أي مشـاعر جديـدة. التوقعـات، والآمـال، والعاطفـة أضحـت جميعهـا كثـيرة جـدًّا عـليّ.

أدرك كل هـذا جيـدًا، لكـن في أوقـات أخـرى كنـتُ لا عقلانيـة في إلقـاء اللـوم عليـه، هـو البعيـد عـن كل لـوم، وبسـخط اعتقـدتُ أنـه إذا أصبحـت روحـه الرقيقـة أكـثر رقـةً، إذا أصبـح تعاطفـه العميـق أكـثر عمقًـا، فـإن بإمكانـه طـرد الشـيطان مـن روحـي وبذلـك يجعلنـي إنسـانة مـن جديـد. أنـا، فكّـرت، مأسـاةٌ تمـشي عـلى قدمـين، شـخصية دراميـة جـاء لرؤيـة تمثيلهـا، يمنحنـي أحيانًـا الإشـارة بـأن ألقـي خطابًـا يلائـم غرضـه في الحقيقـة، ربمـا يضـع الآن قصيـدة عـليّ أداؤهـا، أنـا مسرحيـة هزليـة ولا أمثّـل إلا مـن أجلـه، لكـن بالنسـبة إليّ كل هـذا مـا هـو إلا واقـع مرعـب، يجنـي هـو كل الأربـاح وأتحمـل أنـا كل الأعبـاء.

t.me/qurssan

الفصل الحادي عشر

حالة عجيبة، لكن كثيرًا ما يحدث أن تتحول البركات عند استخدامها إلى لعنات، وأن أنظر، أنا التي طالما تاقت في عزلتها إلى العطف بصفته الترياق الوحيد الذي يمكن أن تستمتع به، إلى هذا العطف كعذاب إضافي. في أثناء حياة أبي كنتُ دائمًا ذات مزاج رقيق ومتسامح، لكن منذ تلك الأيام، واحسرتاه! تغيّرَ في داخلي الكثير. أصبحتُ متعجرفة، ساخطة، وفوق كل هذا متشككة. والاهتمام الحقيقي في حكايتي قد انتهى الآن وعليّ أن أختتمها بكارثتها السوداوية، ومع ذلك سأحكي مثالاً واحدًا آخر على شكوكي ويأسي الحزين وكيف أن وودفيل بالخير في داخله، وبقوة ملاك تقريبًا، قد خفف من وطأة مشاعري المتحجّرة وأعادني إلى الرقّة.

كان قد وعدني بقضاء بضع ساعات معي في ظهيرة أحد الأيام لكن مطرًا عنيفًا ومستمرًا منعه من ذلك. كنتُ بمفردي طوال الأمسية. كنتُ قد قضيتُ السنتين الأخيرتين بكاملهما وحيدة بلا شكوى، لكنني

t.me/qurssan

الآن غـدوتُ بائسـة. اعتقـدتُ أنـه لا يهتـم بي حقًّـا، لأنـه لـو كان كذلـك فعـلاً لمـا منعتـه العاصفـة مـن الحضـور حتّـى وإن لم أتوقـع حضـوره، وليـس أن يتخلّـف عـن زيـارة وعـدني بهـا. كان لـه أن يعـرف جيـدًا أن هـذه السـماء الموحشـة والأمطـار المكفهـرّة سـتزيد مـن أحـمال روحـي إلى حـدّ الجنـون، وإذا كان الطقـس رائقًـا فلـم أكـن لألتـاع لغيابـه كـما أنـا الآن، محصـورة في هـذا الكـوخ البائـس بـلا رفقـاء سـوى أفـكاري التعيسـة. إذا كان صديقـي حقًّـا كان لـه أن يسـتنتج كل هـذا، حتـى يجعلنـي أتباهـى بهـذه الصداقـة الحقّـة، وأكتشـف قيمتهـا الحقيقيـة. بعـد أن تغلّـب عـلى حزنـه عـلى إليانـور، أضحـى الريـف كئيبًـا بالنسـبة إليـه، لذلـك كان سـعيدًا أن يجـدني مـن أجـل التسـلية، وعندمـا لا يعـرف مـاذا يفعـل بخـلاف ذلـك، كان يقـضي السـاعات البطيئـة هنـا، ويسـتدعي هـذه الصداقـة - من الحقيقـي أن وجـوده بمثابـة عـزاء لي، وأن كلماتـه عذبـة، وعندمـا يرغـب يمكنـه صـبّ الأفـكار التـي تنقـذني مـن يـأسي. كلماتـه حلـوة فعـلاً، لكنهـا كحـلاوة عسـل النحـل، والنحـل يمكنـه أن يلـدغ أيضًـا، والجفـاء الإنسـاني أكـثر إيلامًـا مـن ذلـك الـذي يصيبنـا مـن سـم الحـشرات. سـأضعه في امتحـان. يقـول أن الأمـل كلـه أضحـى ميّتًـا بالنسـبة إليـه، وأعـرف أنـه ميّـت بالنسـبة إليّ، بالتـالي فكلانـا مهيـأ للمـوت بالقـدر نفسـه. لأجـرّب إن كان مسـتعدًا للمـوت معـي، لأننـي أخـشى أن أمـوت وحـدي، إن كان سـيصحبني لتشـجيعي، وهكـذا يمكنـه أن يثبـت صداقتـه بالطريقـة الوحيـدة التـي يسـمح بهـا بـؤسي.

كان ذلـك جنونًـا بالطبـع، لكننـي أعملـتُ عقـلي حتـى وصلـتُ إلى هـذه الفكـرة التـي لم يكـن بإمـكاني التفكـير في غيرهـا. إذا مـات معـي كان بهـا، وفي ذلـك تكـون نهايـة كائنـين بائسـين، وإذا لم يمـت، فحينهـا فسأسـخر مـن صداقتـه وأتنـاول السـمّ أمامـه لفضـح جبنـه. خططـتُ للمشـهد كلـه بقلـبٍ مخلـص، وبسـعار وضعـت روحـي في هـذه المهمـة. تحصّلـت عـلى سـم اللودونـو ووضعتـه في كأسـين عـلى المنضـدة، مـلأت غرفتـي بالزهـور

t.me/qurssan

وزيّنتُ المشهد الأخير لمأساتي الوشيكة بأفضل عناية. مع اقتراب ساعة حضوره، شعرتُ بقلبي يلين وبدأت في البكاء، لكنني لم أتخلّ عن مخططي، لكن حتّى في تصميمه فإن العقل لا بدّ من أن يمر بتجيشات عاطفية كثيرة قبل أن يتمكّن من احتساء موته.

الآن أصبح كل شيء جاهزًا وجاء وودفيل. استقبلته عند باب كوخي وقدته بوقار إلى الغرفة، ثم قلتُ له: "صديقي، أتوقُ إلى الموت. أضحيتُ منهكة تمامًا من تحمّل المأساة في كل لحظة، لكنني سأطردها بعيدًا. هل يمكن للعبد، إن استطاع، ألّا يهرب من قيوده؟ انظر، أنا أنتحب، فلأكثر من عامين لم أعرف أبدًا لحظة واحدة بلا آلام. كثيرًا ما تقتُ إلى الموت، لكنني شديدة الجُبن. يصعب على إنسان في بداية شبابه كان سعيدًا ذات مرة كما كنت، أن يختار طوعًا التخلّي عن كل إحساس والانطلاق وحيدًا إلى القبر المرعب، لا أجرؤ. لا بدّ من أن أموت، ومع ذلك فإن خوفي يبعث القشعريرة في جسدي، أتوقف وأرتجف، ولشهور طويلة أحتمل بؤسي المفرط. لكن الآن حان الوقت المناسب للخروج من الحياة، لدي صديق لن يرفض مرافقتي في هذه الرحلة المظلمة، هذا هو طلبي، بكل إخلاص أتوسّل وألتمس منك أن تموت معي. وحينها سنجد إليانور وسنجد ما فقدته أنا. انظر، أنا مستعدة، ها هي رشفة الموت، فلنحتسِها معًا ونعتزل، ببهجة وعن طيب خاطر، هذه الدائرة الكريهة اللانهائية من الحياة اليومية".

"أرى أنك تمتنع عن محادثتي، مع ذلك قبل أن ترفض ما أقول فكّر يا وودفيل، كم سيكون عذبًا أن نلقي عن كاهلنا أحمال الدموع والمأساة التي نرزح تحت أثقالها، وبالتأكد سنجد النور بعد أن نعبر الوادي المظلم. ذلك الشراب سيغرقنا في نوم عذب، وعندما نستيقظ فيا لها من بهجة أن نجد أحزاننا ومخاوفنا قد أصبحت من الماضي. قليل من الصبر، وسينتهي كل شيء، نعم، قليل جدًّا من الصبر، لأنه، انظر، ها هو مفتاح سجننا، نمسكه بين أيدينا وهل نحن أحطّ من

t.me/qurssan

العبيد حتى نلقيه بعيدًا ونسلم أنفسنا إلى العبودية طوعًا؟ الآن، إن واتتنا الشجاعة فقد نكون أحرارًا. انظر، خدي يتوهّج من لذة تخيّل الموت، كل ما نحبّه أضحى ميتًا. بربّك، أعطني يدك، نظرة واحدة من التعاطف المبتهج وننطلق معًا حتى نبحث عنه، رحلة تهدهدنا حتى النوم، وعند وصولنا سنجد النعيم ونستيقظ يقظة الملائكة. هل تماطل؟ هل أنت جبان يا وودڤيل؟ أوه، عار عليك! انفض نظرة السوداوية البشرية هذه عن عينيك. أوه! كنتُ أظن أن كلماتي عن نعمة الموت قد تستميل قلبك. أقول لك إننا لم نعد فانيين بائسين، نحن على وشك أن نصبح إلهين، روحين حرّتين طليقتين وسعيدتين كالآلهة. ما الذي قد يدفع أحمق على شاطئ أجرد، يرى جزيرة مزهرة على الجانب الآخر بحبّه الضائع يلوّح له من فوقها، إلى أن يتراجع لأن الأمواج مظلمة ومتعكّرة؟"

وماذا إن اشتمل المسير على بعض الألم

الذي يمزّق اللحم خوفًا من الأمواج المرّة؟

أليس الألم القصير هو ما يمنح الراحة الطويلة

ويُسلِم الروح إلى النوم في قبر هادئ؟[1]

"تذكّر كلماتي، لقد تعلّمت لغة اليأس، أحمل جميع كلماتها في قلبي، فأنا اليأس، وكائنٌ غريب أنا، يأس منتصر، مبتهج. لكن هذه الكلمات زائفة، فالموج قد يكون مظلمًا لكنه ليس مريرًا. نستلقي أرضًا ونغلق أعيننا بكلمات (ليلة سعيدة) رقيقة، وعندما نستيقظ، نصبح أحرارًا. بربّك إذًا، لا تماطل، أنت غير المكترث! انظر إلى الشراب المبهج! انظر، أنا روح الخير، وليست فتاة بشرية من تدعوك، وبنبرات فاتنة منتصرة، (أوه، أن تنتصر عليك!) تقول، تعال واحتسِ الترياق".

---

(1) ملحمة ملكة الجن (Faerie Queene) لإدموند سبنسر، الكتاب الأول، النشيد التاسع- المترجم

t.me/qurssan

في أثناء حديثي كانت عيناي مثبتتين على ملامحه، وعلى جماله البديع، الحنوّ السماوي الذي يشعّ من عينيه، ونظرة الاستنكار والدهشة، الرقيقة والجادة معًا، حتى قبل أن يتحدث، خلقتْ تغيّرًا في مشاعري شديدة التوتر، وجرّدتني من كل صلابة اليأس، مخلّفةً داخلي أضعف أنواع الحزن. رأيتُ عينيه نديّتين أيضًا وهو يأخذ كلتا يديّ في يديه، وجلس بقربي، ثم قال:

"هذه فعلة حزينة تلك التي تودين بي إليها، صديقتي العزيزة، ولا بدّ من أن ألمك في غاية الشدة حتّى يملأك بهذه الأفكار التعيسة. تتوقين إلى الموت ويقتلك الخوف منه رغم ذلك، وترغبين في أن أكون رفيقك في هذا كله. لكنّ شجاعتي لا تبلغ مقدار شجاعتك، وحتّى وإن صاحبتكِ فلا أجرؤ على الموت. أنصتي إليّ، ثم فكّري إذا كان عليك استمالتي لفكرتك هذه، حتّى وإن تمكّنتِ بالفصاحة المتعجرفة ليأسك من إضفاء صورة جذابة على الموت الأسود حتى بدت السماوات الجميلة كالظلام. أنصتي، أناشدك بكلمات إنسان احتضن بنفسه أفكار اليأس، وتاقَ أيضًا برغبة جزعة إلى الموت، لكنه نجح في نهاية المطاف في سحق الشبح تحت قدميه، وقهر لدغته. بربّك، كما لعبتُ دور اليأس معي سألعب دور أونا[1] معكِ وسآتي بكِ سليمةً بلا أذى من كهفه المظلم. أنصتي إليّ، حتى تلين نفسك بفعل كلمات لا تشوبها أي عاطفة أنانية".

"لا نعرف ما معنى كل هذا العالم الواسع، إنه خليط غريب من الخير والشر. لكننا وُضعنا هنا ساعين نحو الحياة والأمل. لا أعرف ماذا علينا أن نأمل، لكن علينا أن نبحث عن شيء ما طيب يتجاوز إدراكنا، وهذه هي مهمتنا الأرضية. إذا أصابتنا المحنة علينا أن نصارعها، علينا

(1) Una واليأس Despair شخصيات في قصيدة ملكة الجن لإدموند سبنسر، حيث تخطو أونا وتسحب آرثر، بطل الملحمة، من كهف اليأس - المترجم

t.me/qurssan

أن نطرحها جانبًا، ثم نستمر للبحث عما تنشده طبيعتنا. وما إذا كان هذا الأمل في مستقبل طيب هو إعداد لوجود آخر فهذا أمر لا أعرفه، وإذا كنّا مجرد عمّال في حقل كرْم الرب، فعلينا أن نمدّ أيدينا لتمهيد الطريق للأجيال القادمة. إذا كان الأمر كذلك فعلاً، أو إذا كانت مساعي الأخيار الآن، من أجل جعل سكّان المستقبل في هذا العالم الجميل أكثر سعادة، إذا كانت أعمال هؤلاء الذين يطرحون الأنانية جانبًا، ويحاولون معرفة حقيقة الأشياء، ستحرر رجال العصور، البعيدة الآن ولكنها ستأتي يومًا ما، من الأحمال التي يتأوه تحت أثقالها من يعيش الآن، ومنها يبكي أمثالكِ بحرقة، إذا كان لهم أن يحرروهم من مجرد شرّ واحد من شرور الحياة المعاصرة التي لا مفرّ منها، فإنني حقًّا لن أتراجع لكن بكل روحي سأساعد في هذا الهدف. طالما قلتُ من بداية شبابي، إنني سأكون من الأخيار، سأكرّس حياتي لصالح الآخرين، سأبذل أفضل ما عندي لاستئصال الشر وإذا كانت الروح التي تحمي الشرّ لها تأثيرها على ما يحيط بي، فحينها عليّ أن أكابد في سعيي، مع ذلك، ما زال أمل النجاح قائمًا، وحتمًا سيبقى كذلك للأبد، بابتهاج أطوّق نفسي استعدادًا لمهمّتي".

"أتمتّع بقوى معينة، وأبناء وطني يظنون بها الخير. هل ترين أنني أحرث بذري في الهواء العقيم، وأن لا نهاية لما أفعل؟ صدّقيني، لن أهجر الحياة أبدًا حتّى يتمزّق هذا الأمل الأخير من قلبي، بحيث إنه بطريقة أو بأخرى يمكن لثمرات جهدي أن تشكّل حلقة الوصل في سلسلة الذهب التي بها علينا جميعًا أن نكافح لجرّ السعادة من حيث تجلس على عرشها فوق السحاب، بعيدًا جدًّا الآن عن متناولنا، حتّى تسكن الأرض معنا. لنفترض أن سقراط، أو شكسبير، أو روسّو، كان قد وقع فريسةً لليأس ومات في شبابه في مثل سنّي الآن، هل تظنين أننا والعالم بكامله لم نكن لنخسر تحسنًا لا يحصى في مشاعرنا الطيبة، ونخسر سعادتنا بسبب دمارهم. لستُ مثلهم، هم أثروا في الملايين،

t.me/qurssan

لكن إذا كان بإمكاني التأثير في مئة فحسب، أو عشر، أو مجرد إنسان واحد في عزلته، أي أن أقوده بأي نحو من الخير إلى الشر، فتلك بهجة تستحق كل معاناتي ثمنًا لها، رغم أنها معاناة تضاعفت ملايين المرات، لكن ذلك الأمل سيمنحني القدرة على احتمالها".

"وهؤلاء الذين لا يعملون من أجل الأجيال القادمة، أو أنهم يعملون، حسب الحالة ربما، فلن يعرفهم أحد لذلك، مع ذلك فلديهم أيضًا، صدّقيني، واجباتهم ومسؤولياتهم. يحزنك أنك تعيسة، والسعادة هي ما تبحثين عنه، لكنك يائسة من تحقيقها. لكن إن استطعتِ منح السعادة لآخر، إن استطعتِ منح إنسان آخر مجرد ساعة واحدة من البهجة، ألا ينبغي عليكِ أن تعيشي حتى تنجزي ذلك؟ والجميع يتمتع بالقدرة على فعل ذلك. يعاني سكّان هذا العالم من آلام كثيرة. في المدن المزدحمة، في السهول المحروثة، أو على جبال الصحارى، تُحرث بذور الألم في طبقات كثيفة، وإذا استطعنا انتزاع عشبة واحدة فحسب من هذه الأعشاب البغيضة، أو أكثر، إذا نجحنا في حرث حبة قمح واحدة محلّها، أو زرع زهرة جميلة واحدة، فليكن هذا دافعًا كافيًا للرجوع عن الانتحار. دعينا لا نهجر مهمتنا ولا يزال أدنى أمل قائمًا بأننا يومًا ما في المستقبل قد ننجح في ذلك".

"حقًا لا أجرؤ على الموت. لديّ أمّي التي أمثل لها الدعم والأمل. لديّ صديق يحبّني كحياته، وفي صدره سأزرع مرارة أخلاقية إذا غادرته ناكرًا للجميل. لذلك لن أموت. ولن تموتي أنتِ كذلك يا صديقتي، أتوسّل إليكِ. ابتهجي، توقفي عن البكاء، ألستِ شابة، وجميلة، وصالحة؟ لماذا عليكِ أن تيأسي؟ أو إذا كان لزامًا عليكِ من أجل نفسك، فلماذا من أجل الآخرين؟ إذا لم يمكنكِ أن تكوني سعيدة أبدًا، أفلا يمكنك منح السعادة أبدًا؟ أوه! صدّقيني، إذا زرعتِ في شفتين شاحبتين من الحزن ابتسامةً بهجة وامتنان واحدة، وعلمتِ أنكِ من أنجب تلك الابتسامة، ومن دونك لم تكن لتحدث أبدًا، حينها ستشعرين

t.me/qurssan

بسعادة دافئة ونقية لحدّ أن تنشدي الحياة للأبد مرّات ومرات حتى تستمتعي باللذة نفسها".

"بربّك، أرى أنكِ طرحتِ جانبًا بالفعل كل الأفكار الحزينة التي كنتِ منغمسةً فيها باهتياج. انظري في تلك المرآة، عندما قدمتُ انكمش جبينك، وغرقتْ عيناكِ في رأسك، وارتعشت شفتاكِ، وارتجفت يداكِ بعنف عندما أخذتهما بين يديّ، لكن الآن أضحى كل شيء هادئًا وناعمًا. أنتِ حزينة والحزن يبدو في تعابير ملامحك لكنها الآن رقيقة وعذبة. اسمحي لي أن ألقي بعيدًا بهذا الشراب الملعون، ثم ابتسمي بعدها، أو، باركي لي، لقد انتصر الأمل، ونجحتُ في إنجاز شيء طيب".

تبدو هذه الكلمات غائمة وأنا أكررها لكنها كانت بالفعل كلمات من نار وخلقت في داخلي أملاً دافئًا (أنا، المسكينة البائسة، أصبح لدي أمل!) سرى كاللذة في عروقي. لم يغادرني لساعات طويلة، حتّى بعد أن زاد من لهيب الشعلة التي أوقدها، وبيدٍ ملائكيةٍ احتضن عودة شيء ما يشبه البهجة. غادرني لكنني كنتُ هادئة، وبعد أن أرسلتُ التحيات إلى نجوم السماء والأرض النديّة بعينين من الحب وتحية مساء راضية، استغرقتُ في النوم العذب، وزارتني الأحلام، اللذة الأولى التي أعرفها منذ شهور طويلة.

لكن كل هذا لم يكن سوى راحة لحظية وسرعان ما عادت مشاعري المعتادة القديمة، فقدري في الحياة أن أحزن، وإلى الحزن الطبيعي لموت أبي وسببه الرهيب، أضاف الخيال عشرة أمثال من المحن والبلايا. كنتُ مؤمنة أنني غدوت ملوثة بحب غير سوي كنتُ سببًا في إثارته، وأنني كنتُ مخلوقًا ملعونًا ومعزولاً بطبعه. كنتُ أعتقد أنني مثل قابيل، بعلامة على جبيني تعلن للنوع الإنساني أن حاجزًا ينتصب بيني وبينهم. قال لي وودڤيل إن على ملامحي يظهر تعبير كما لو أنني أنتمي إلى عالم آخر، إذًا فقد رأى تلك العلامة،

t.me/qurssan

وفيها تكمن إشارة مظلمة تحكي للعالم ما يستقر في روحي من ظلام لا يستطيع أي صمت مهما بلغ أن يزيد من عتمته اللانهائية. لماذا، عندما قادني القدر حتى أصبحت هذه المنبوذة عن الشعور الإنساني، هذا الوحش الذي لا يمكن لشيء أن يمتزج سواء أبالحديث أم الحب، لماذا، من تلك اللحظة القاتلة الملعونة، لم يحجبني القدر، لم يضعني في أكفان من سدم كثيفة، لم يخلق ظلامًا حقيقيًّا بيني وبين أقراني حتى تستحيل رؤيتي ثانيةً؟ وعند مروري، كسحابة قاتمة محمّلة بالخراب، لا يدركون وجودي إلا عبر الرعشة الباردة التي أرسلها عليهم، تخبرهم، بكل صدق، أن شيئًا شيطانيًّا يمر على مقربة؟ إذًا كان عليّ أن أعيش على هذه السهل المرعب بلا كائن يزورني، واهبةً لا شيء سوى تحديقاتي الدنسة. واحسرتاه! أومن من غير ريب أنه إذا لم يكن احتمال الموت القريب سببًا في تلطيف وإطفاء مشاعري المريرة، إن استمريتُ لبضعة أشهر أخرى في العيش كما كنتُ أعيش حينها، قوية الجسد، لكن بروح فاسدة حتى جوهرها بسرطان مميت، إن تأملتُ يومًا بعد آخر في هذه الأحاسيس المريعة، فحتمًا كنتُ لأجنّ، متخيّلة أنني طاعون حيّ يمشي على قدمين، وفي أفكاري المنعزلة بدا هذا الشكل، هذا الصوت، وكل هذه الذات البائسة، شديد الإفزاع، أفلم يكن هو منبع الشعور بالذنب الذي يبحث عن اسم؟

كانت هذه خرافةً وتطيُّرًا. لم يراودني بالتالي أي شعور مهتاج عندما علمتُ في البداية أن اسم الأب المقدس أصبح لعنةً بالنسبة إليّ، لكن حياتي الوحيدة ألهمتني بأفكار جامحة، وعندما رأيت وودفيل يومًا بعد يوم يحاول جاهدًا كسب ثقتي وأبدًا لم أجرؤ على النطق بكلمة عن حكايتي المظلمة، أصبحتُ متأثرة على نحو أكثر قوّة بالخوف المهلك أنني كنتُ في الحقيقة مخلوقًا بعلامة على جبينه، شخصًا منبوذًا، لا يصلح إلا للموت.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثاني عشر

لأنني كنتُ أبدًا فريسةً لهذه الأفكار، يمكن تخيّل أن تأثير كلمات وودڤيل كان مؤقتًا جدًّا، وأنه رغم أنني لم أتهمه ثانيةً بالجفاء، فإنني سرعان ما أصبحتُ تعيسةً كما كنتُ من قبل. بعد هذه الحادثة بوقت قصير افترقنا. تناهت إليه الأخبار بمرض أمه، وأسرع إليها. جاء لتوديعي، وسرنا معًا على السهل للمرة الأخيرة. وعدني أنه سيأتي ويراني ثانيةً، وطلب مني الابتهاج والتأمل في الأفكار السعيدة قدر استطاعتي، حتّى يحين الوقت وتتغلب الشجاعة على مأساتي، وحينها أندمج في المجتمع ثانيةً.

"بعيدًا عن أي نصيحة أو عتاب من جانبي"، قال لي، "ابتهجي واتبعي هذه النصيحة: لا تيأسي. هذه هي الهاوية الأكثر خطورةً التي تترنحين على حافتها أبدًا، لكن عليكِ تثبيت خطاك، وأن تبحثي عن الأمل لإرشادك. اعتنقي الأمل دينًا، وحينها تكونين قد قطعتِ نصف الطريق لشفاء جروحكِ، لكن إذا اعتنقتي اليأس بعناد، فلن

t.me/qurssan

تجـدي أي عـزاء أبـدًا. صدّقينـي، صديقتـي العزيـزة، عندمـا أقـول لـك بـأن البهجـة التـي في الشـمس والأرض وكل أوجـه جمالهـا قـد تكـون مـن نصيبـك يومًـا مـا. ونعيـم الحـب المنعـش سـيعرف طريقـه إلى قلبـكِ ثانيـةً، ويُبطـل السـحر الـذي يربطـك بالمحنـة، حتـى تتعجبـي كيـف يمكنـك إغـلاق عينيـك في الليـل الطويـل الـذي يثقـل كاهلـك. لا أجـرؤ عـلى الأمـل بأننـي ألهمتـكِ قناعـةً كافيـةً بـأن أفـكاري، والعاطفـة التـي سـأحملها نحـوكِ دومًـا، سـتخفف مـن سـوداويتك ومـرارة دموعـك. لكـن إذا كانـت صداقتـي قـادرة عـلى جعلـك تنظريـن إلى الحيـاة بامتعـاض أقـل، فاحـذري أن تجرحيهـا بشـكوككِ. الحـب شـبح رقيـق يتـأذّى بسـهولة مـن الغـيرة الفظّـة. حافظـي، أتوسّـل إليـكِ، عـلى قناعـة راسـخة بإخـلاصي في أعمـق ثنايـا قلبـك بعيـدًا عـن متنـاول الريـاح المفاجئـة التـي قـد تعصـف بـه. أضحـى مزاجـك غـير منتظـم بفعـل المعانـاة، ومحتـوى عقلـك، أخـشى ذلـك، أحيانًـا مـا يهتـز بفعـل أسـباب لا معنـى لهـا، لكـن لتكـن ثقتـك في تعاطفـي وحبـي أكـثر رسـوخًا بكثـير، بحيـث لا يمكـن أن تصـل إليهـا تلـك الاهتياجـات التـي تجـيء وتـروح، بحيـث إنهـا إذا لم تلامـس عواطفـك فإنهـا لـن تصيبـك بـأذى".

كانـت هـذه بعضًـا مـن آخـر دروس وودفيـل. كنـت أبـكي وأنـا أنصـت إليـه، وبعـد وداعنًـا المحـبّ، تبعتـه بعينـيّ مـن بعيـد حتـى رأيـتُ آخـر أثـر لمانـح عـزائي الأرضي. كنـتُ قـد أصرَّيـت عـلى مرافقتـه عـبر السـهل في اتجـاه البلـدة التـي يسـكن فيهـا، كانـت الشـمس لا تـزال متوهجـة عندمـا غـادرني، واسـتدرتُ بخطـواتي في اتجـاه كوخـي. كنّـا حينهـا في أواخـر شـهر سـبتمبر إذ الليـالي بـاردة. لكـن الطقـس كان خامـلاً، وفي أثنـاء سـيري لم أسـقط فريسـة لأي أحـلام يقظـة حزينـة. فكّـرت في وودفيـل بامتنـان وحنو ولم أتحسر، لا أعـرف لمـاذا، عـلى رحيلـه بـأي مـرارة. بـدا الأمـر كأنـه بعـد صدمـة واحـدة كبـيرة أضحـى أي تغـيّر آخـر تافهًـا بالنسـبة إليّ، ومضيـتُ أتسـاءل متـى الوقـت الـذي نجتمـع فيـه أربعتنـا، أبي الحبيـب وقـد رُدّ إليّ،

t.me/qurssan

في فردوس ما عذب، تخيّلته كنهر بديع كذلك الذي وصف دانتي ماتيلدا على ضفته وهي تجمع الأزهار، نهر يتدفق أبدًا:

-- bruna, bruna, Sotto l'ombra perpetua, che mai Raggiar non lascia sole ivi, nè Luna.

- - مظلم، مظلم، تحت الأبدية، ظلال مستوطنة، تحجب شعاع الشمس والقمر عن مياهه.

وحينها كررتُ على مسامعي تلك الكلمات البديعة التي تحكي دخول دانتي إلى الفردوس الأرضي، ورأيتُ أنه من العذب أن أهيم على هذه الضفاف البهيجة لرؤية قاطرة الضوء تهبط بأبي الذي طال غيابه حتّى أسترده. مع انتظاري هناك ترقّبًا لتلك اللحظة، فكّرتُ كيف أنه يمكنني، بالأزهار الجميلة التي تنمو هناك، لفّ نفسي على شكل إكليل وتتويج نفسي من أجل البهجة، وحينها سأغني sul margine d'un rio، أغنية أبي المفضلة، وأن صوتي منزلقًا عبر الهواء الساكن سيعلن له، جالسًا في مرساته مترقّبًا لحظة اتحادنا، أن ابنته قد جاءت. وحينها ستتلاشى وصمة المأساة من جبيني، وسأرفع عينيّ بلا خوف لمقابلة عينيه، اللتين تشعان أبدًا بالوهج الخافت للحب البريء. وعندما أتأمل في النظرة السحرية لهاتين العينين العميقتين أبكي، لكن برقة، خشية أن تفسد شهقاتي المشهد الجميل.

كنتُ غائصة بالكامل في حلم اليقظة هذا وتابعتُ تجوالي، لا مبالية تجاه خطواتي حتى انحنيتُ لألتقط زهرة من أجل إكليلي على ذلك السهل الكئيب الذي لا تنمو عليه أيّ أزهار، عندما استيقظت من حلم يقظتي لأكتشف أنني في بقعة مجهولة.

كانت الشمس قد غربتْ ومسحة اللون الوردي التي اقتنصتها السحب منها في هبوطها قد تلاشت تقريبًا. هبّت ريح عبر السهل، تطلعتُ من حولي ولم أرَ أي شيء يخبرني أين كنتُ، ضللتُ طريقي

t.me/qurssan

وحاولت بلا جدوى أن أجد سبيل العودة. تابعتُ التطواف، والظلام الوشيك قد أخفى كل أثر تقريبًا قد يرشدني. في النهاية أصبح كل شيء محتجبًا وراء الظلام القاتم لليل الأكثر سوادًا، أضحيتُ مرهقةً وبعلمي أن خادمتي ستنام تلك الليلة في القرية المجاورة، وبذلك فإن غيابي لن يصيب أحد بالذعر، وأنني آمنة في هذه البقعة المقفرة من أي متطفل، قررتُ أن أمضي الليل حيث أنا. كنتُ متعبة بالفعل عاجزةً عن اتخاذ خطوة أخرى، كان الهواء باردًا لكنني كنت غير مكترثة بأي عناء جسدي، وفكّرتُ في أنني تمرّستُ على هذا الطقس خلال عزلتي التي دامت لسنتين، ولم يكن أي تغيّر في الفصول ليمنعني من تطوافي الأبدي.

استلقيتُ على العشب الغارق في ظلام لا ينفذ منه أرقّ شعاع من الضوء - كان الصمت يلفّني تمامًا فالليل الحالك كان قد أنام الحشرات، المخلوقات الوحيدة التي تعيش في هذه البقعة المنعزلة حيث الشجر والأجمات لا يمكن أن تؤوي أي شيء آخر - كان من حولي صمتٌ عجيب في الهواء أرخى حواسي ومع ذلك أنعش روحي، وأضحى عقلي يهرع من صورة إلى أخرى في ما يبدو أنه الأبدية. كل ما في قلبي كان غائمًا ومع ذلك هادئًا، لكن أفكاري سرعان ما اختلط بعضها ببعض وتلاشت في النهاية مع استغراقي في النوم.

عندما استيقظت كان المطر منهمرًا بشدة، كنتُ مبتلة تمامًا، وذراعاي متصلبتين ورأسي دائخًا من برودة الليل. كانت الأمطار على شكل وابل متغلغل ونافذ، وأضحى شعري شديد الرطوبة ملتصقًا بعنقي ومغطيًا جزءًا من وجهي، بالكاد تمكّنت بأصابعي من إبعاد الخصل المختنقة الطويلة التي سقطت أمام عينيّ. كان الظلام قد انقشع إلى حد كبير في الشرق حيث كانت السحب أقل كثافةً والقمر مرئيًا وراء سحابة رمادية رقيقة.

t.me/qurssan

كان القمر وراءنا في تمامه، لكنه صغير وباهت في أعيننا (1)

منحني وجوده أملاً أن من خلاله يمكنني أجد الطريق إلى بيتي. لكنّي كنتُ واهنة وساعات طويلة مرّت قبل أن أصل إلى الكوخ، ساحبةً خطواتي البطيئة، ومستريحةً كثيرًا على الأرض الندية عاجزةً عن الاستمرار.

أتذكّر هذه الليلة على نحو خاص، لأنها كانت الليلة التي عجّلتْ بقدوم المشهد الأخير من مأساتي، التي كان لها أن تتضاءل وتختفي عبر السنوات الطويلة من الحزن المضطرب. كنتُ في غاية المرض عند وصولي وعاجزة تمامًا عن نزع ملابسي المبتلة التي التصقت بي. في الصباح، عند عودتها، عثرت عليّ خادمتي ميّتة تقريبًا وقد انتابتني حمّى شديدة دفعتني للاستلقاء على أرضية غرفتي.

كنتُ فريسةً للمرض الشديد لفترة طويلة، وعندما استعدتُ عافيتي من الخطر الوشيك بالحمّى، سرعان ما أعلن مرض السل عن نفسه بكل عرَض ممكن. كنتُ جاهلةً به لبعض الوقت واعتقدتُ أن ضعفي الشديد كان نتيجةً للحمّى، لكن قوتي تداعت أكثر وأكثر مع مرور الوقت، عندما جاء الشتاء كنت أعاني من الكحّة، كان خداي غائرين، ثم شاحبين، ثم محترقين بالحمّى العُصيبية. واحدًا بعد آخر حلّت بي هذه الأعراض، وأصبحت مقتنعة بأن اللحظة التي طالما تمنيتها كانت تقترب وأنني على وشك الموت. كنتُ جالسة بجوار المدفأة، والطبيب الذي اعتاد فحصي منذ إصابتي بالحمّى قد غادر، أنظر في وصفته التي كانت زهرة الكشتابين هي الدواء الأهم فيها. "نعم"، قلت، "أرى كيف هو الأمر، وكم هو غريب أنني خدعت نفسي طويلاً، أنا على وشك الموت ببراءة، وهذا أعذب حتّى مما يعد به الأفيون".

---

(1) مقطع من قصيدة لصامويل تايلر كولريدج - المترجم

t.me/qurssan

نهضتُ وسرتُ ببطء إلى النافذة، كان السهل الواسع مغطّى بالثلج المتلألئ تحت شعاع الشمس التي كانت تسطع بتوهّج عبر الهواء الصقيعي النقي، بضعة طيور تلتقط بمنقارها كسرات الخبز تحت نافذتي. أبتسم ببهجة هادئة، غارقةً في أفكار، اعتادت عبر الممارسة الطويلة على أن تربط نفسها في تيّار واحد، كما لو أنني قد شكّلتها إلى كلمات، بها أخاطب المشهد الذي أمامي:

"سلامي لكِ، أيتها الشمس البهيّة، وسلامي لكِ، أيتها الأرض البيضاء، البديعة والباردة! ربما لن أراكِ ثانيةً أبدًا وقد كستكِ الخضرة من جديد، والزهور الحلوة للربيع المقبل قد تفتحت على قبري. أنا على وشك مغادرتك، قريبًا فإن هذه الروح الحيّة، المنشغلة أبدًا بالأشكال والأفكار العجيبة، الغريبة عنكِ، قريبًا ستحلّق إلى حقول أخرى وهذا الجسد المهزول سيرقد عديمًا من الشعور على صدرك".

"متدحرجًا في مسار الأرض اليومي مع الصخور والأحجار والأشجار".

"فالأمر نفسه معكِ، مع الكون الأم، طويلاً بعد أن أرحل. أحببتكِ، وفي أيام سعادتي وحزني ملأتُ عزلتك بخيالات جامحة من خلقي الخاص. الغابات، والبحيرات، والجبال التي طالما أحببتها، تحمل لي ألف معنى، وأنتِ، أوه، الشمس! قد ابتسمتِ، وكان لكِ نصيب في خيالاتي التي انبثقت حيّة في روحي الوحيدة، والتي معي ستموت. عزلتك، أيّتها الأرض الحلوة، وأشجارك ومياهك

ستبقى على قيد الوجود، تحرّكها الرياح، أو تسكن تحت لفح الظهيرة، رغم أن ما أشعر به تجاهك، وكل أحلامي التي كثيرًا ما شوّهتك على نحو عجيب، ستموت معي. ستبقين موجودة حتى تعكسي صورًا أخرى في عقول أخرى، وأبدًا ستظلّين كما أنتِ، رغم تبدّل صورتك بألف شكل، متغيّرة كقلوب الذين ينظرون إليكِ. واحدة

t.me/qurssan

من هذه المرايا الهشّة، قريبًا ستتهشم، متشظيّةً إلى غبار. لكن الطبيعة الزاخرة دومًا ستخلق أخرى وأخرى، ولن تخسري شيئًا بفنائي.

"ستبقين أبدًا كما أنتِ. اقبلي إذًا الوداع الممتن لظل عابر على وشك أن يختفي، ظلٌّ سيرحل عنكِ مبتهجًا بنظرة أخيرة من الامتنان الصادق. وداعًا! أيّتها السماء، والحقول والغابات، والأزهار الجميلة التي تنمو عليكِ، والجبال والأنهار، وداعًا للهواء الشافي ورياح الشمال العاتية، وداعًا لكم جميعًا، وداعًا أخيرًا. لن أسفك أي دموع فقد اقتربتُ من إنجاز مهمتي، وأضحيت على وشك أن أكافأ على المعاناة الطويلة الشاقة. باركي طفلتك حتّى في الموت، كما باركتكِ، واسمحي لي أن أرقد في سلام في قبري الهادئ".

أشعر بالموت قريبًا منّي، وأستغرق في الهدوء. لم أعد فريسةً لليأس، بل أتطلع إلى كل ما حولي بعاطفة رائقة. أجد عذوبةً في مراقبة قوتي وهي تداعى لحظة بلحظة، ويومًا بعد آخر، لكنني لن أرى أوراق الخريف الحمراء ثانيةً، وأنه قبل ذلك الوقت سأكون مع أبي. كنتُ مبتهجة أن وودفيل ليس معي لأنه ربما يصيبه الحزن، ولا أرغب إلا في رؤية الابتسامات في أثناء هذا المشهد الأخير في حياتي، كتبتُ له مؤخرًا أخبره بصحتي العليلة لكن ليس عن ميلها للفناء، خشية أن يرى أن من واجبه أن يحضر إليّ، لأنني أخشى أن دموع الصداقة ستقتل الهدوء المبارك لعقلي. وجدتُ لذةً في ترتيب جميع التفاصيل الصغيرة التي ستظهر عندما لا أعود موجودة. في الحقيقة أنا واقعة في حب الموت، ولا يمكن لأي فتاة عذراء أن تجد لذةً في تفكّرها في رداء عرسها أكثر مما أجد في تخيل أطرافي ملتفّة في أكفانها، أليس هذا هو فستان زفافي؟ وحده سيوحدني بأبي في اتحاد عقليّ أبديّ لن نفترق بعده أبدًا.

لن أسهب في ذكر التفاصيل الأخيرة التي شعرت بها في الانحلال النهائي للطبيعة. كان الأمر سريعًا لكن بلا ألم، شعرتُ بلذة غريبة في

t.me/qurssan

ذلك. لسنوات طويلة فإن هذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها أيام السكينة. لم أعد أستنزف قلبي البائس بالدموع المريرة والشكايات المهتاجة، لم أعد أعاتب الشمس، والأرض، والهواء، على الألم والتعاسة. أنتظر في ترقّب هادئ ساعات الختام لحياة وجدتُ فيها العذوبة والمرارة. لن أموت محرومةً من حياة ممتعة، طوال ستة عشر عامًا كنتُ سعيدة، خلال الشهور الأولى من عودة أبي استمعتُ بعصور من البهجة، والآن قد نضجتُ في الحزن، خطواتي ضعيفة كالعجائز، بعد أن أضحيتُ حادة الطباع وغير ملائمة للحياة، وبذلك، بعد أن قضيت أكثر من عشرين عامًا بقليل على الأرض، أصبحتُ أكثر ملاءمة لقبري الضيّق أكثر من كثيرين وصلوا إلى النهاية الطبيعية لحياتهم.

مرارًا وتكرارًا أسترجع في ذاكرتي المشاهد المختلفة من حياتي القصيرة، إذا كان العالم خشبة مسرح وأنا لستُ سوى ممثلة عليها فقد كان دوري عجيبًا وكذلك، واحسرتاه، مأساويًّا. منذ بداية عمري تقريبًا كنتُ محرومة من كل براهين العطف التي يتلقاها الأطفال عادةً، كنتُ مهجورة بالكامل معتمدةً بالكامل على وسائلي الخاصة، مستمتعةً بما يمكن أن أسميه بمباهج غير طبيعية، لأنها كانت أحلامًا وليست وقائع. كانت الحياة بالنسبة إليّ مشكاة سحرية وأنا مجرد مشاهدة، ومستمعة لكن ليس فاعلة، ثم جاء زمن الانتقال وإحياء الروح لوجودي، أبي قد عادَ وأصبح بإمكاني سكب عواطفي الدافئة على قلب بشري، ظهرت شمس جديدة وخلقت أرضًا جديدة من أجلي، مياه الوجود أضحت متلألئة، بهجة! بهجة! لكن، واحسرتاه! يا له من حزن! انقضت سعادتي بأسرع من مرور شعاع شمس على جبل، بعد أن كشف عن فرجاته وغاباته، ثم تركته مظلمًا وخاويًا، بعد سعادتي كان الجنون والألم، واختتمت باليأس.

شهدت حياتي مأساة درامية أرسمها الآن على الورق. طوال ثلاثة أشهر كنتُ مستخدَمة من أجل هذه المهمّة. ذكرى الحزن قد جلبت

t.me/qurssan

الدمـوع، وذكـرى السـعادة وهجًـا دافئًـا للظـلال الحيّـة لتلـك البهجـة الضائعـة. الآن وقـد جفّـت دموعـي، وتـلاشى الوهـج مـن خـديّ، وبكلـمات وداع قليلـة مـن أجلـك وودڤيـل، أختـم عمـلي، آخـر مـا أنجـزه في حيـاتي.

وداعًـا، صديقـي الحـيّ الوحيـد، أنـتَ الرابطـة الوحيـدة التـي تربطنـي بالوجـود، والآن أكسرهـا حتّـى لا يصيبنـي الألم بسـبب رحيـلي عنـك، أو يصيبـك الألم بسـبب انفصالنـا. لم تنظـر إليّ أبـدًا كواحـدة مـن هـذا العـالم، بـل إنسـانة، بُعثـتْ مـن مملكـة الظـلال من أجـل التوبـة والتكفـير، وقضت بضعـة أيـام تبـكي عـلى الأرض وتتـوق للعـودة إلى وطنهـا الأم. سـتبكي أنـت حقًّـا لكنهـا سـتكون دموعًـا رقيقـة. كان لي، إن اعتقـدتُ أن هـذا سـيخفف مـن التياعـك، أن أطلـب منـك الابتسـام وتهنئتـي عـلى رحيـلي عـن المأسـاة التـي شـهدتَ احتـمالي لهـا. أقـول لـك وودڤيـل، ابتهـج مـع صديقتـك، فأنـا الآن منتـصرة وفي ذروة السـعادة. لكننـي سـأكبح هـذه الكلـمات، فقـد لا تكـون هـي العـزاءات المناسـبة للأحيـاء، فهـم يبكـون عـلى مآسـيهم، وليـس عـلى مأسـاة الإنسـان الـذي فقـدوه. لا، اسـفح بضـع دمـوع عاديـة فحسـب تكريمًـا لذكـراي، وإن زرت قـبري ذات مـرة، فانـزع منـه زهـرة، وضعهـا عـلى قلبـك، فقلبـك هـو المقـبرة الوحيـدة الـذي سـتدخلها ذكـراي.

يقـترب مـوتي بسرعـة ولسـتَ قريبًـا منـي حتّـى تشـهد تحليـق روحـي واختفاءهـا. لا تأسـف عـلى هـذا، فالمـوت شيء شـديد الفظاعـة عـلى الأحيـاء. إنـه واحـد مـن تلـك المحـن التـي تـؤذي القلـب بـدلاً مـن تطهيره، وهـو مأسـاة ثقيلـة الوطـأة تقتـل المشـاعر وتحيلهـا إلى حجـر. مريعًـا كـما كان الزمـن عندمـا تتبعـت أبي نحـو المحيـط، ولم أجـد هنـاك سـوى جثمانـه الهامـد، مـع ذلـك إكرامًـا لنفـسي أفضّـل ذلـك عـلى رؤيـة نبـض قلبـه يتداعـى، وحواسّـه تتـلاشى واحـدةً بعـد الأخـرى، وبكـدّ تُلتَهـم حياتـه وأنـا محدّقـة. أن أرى الحيـاة في أطرافـه وأن أعـرف أن الحيـاة سريعًـا مـا سـتختفي منهـا، أن أرى الأنفـاس الدافئـة تخـرج مـن شـفتيه وأن أعـرف أنهـا سريعًـا مـا سـتصبح بـاردة - لـن أسـتمر في تتبع هـذه الصـورة المرعبة،

t.me/qurssan

لقد عانيتَ من هذا العذاب ذات مرة، ولم أعرفه أنا. والذكرى أحيانًا ما تملأ قلبك بيأس مرير بدلاً من أن تذيب مشاعرك في حزن ناعم.

لذلك، أزداد ضعفًا يومًا بعد يوم، وترتعش الحياة في جسدي الخرِب، كمصباح على وشك أن يفقد آخر قطرة زيت تضيئه. أنظر الآن إلى شمس مايو السعيدة. كنّا في مايو أيضًا، منذ أربع سنوات، عندما رأيتُ أبي الحبيب للمرة الأولى، كنّا في مايو، منذ ثلاث سنوات عندما تسببت حماقتي في تدمير الكائن الوحيد المحكوم عليّ بحبه. عادَ مايو وأنا أموت. منذ ثلاثة أيام، في ذكرى لقائنا، وكذلك، واحسرتاه! ذكرى انفصالنا الأبدي، بعد يوم من الانفعالات القاتلة، قدتُ نفسي ثانيةً للنظر إلى وجه الطبيعة. انطلقتُ إلى مروج تبعد بضعة أميال عن كوخي، كان العشب مجزوزًا، ورائحة التبن تملأ الحقول، والأرض بكاملها تبدو منتعشة وقاطنوها سعداء. كان المساء يقترب وأنا أنظر إلى الشمس تغرب. وفي الذكرى الثالثة، في ذلك اليوم وتلك الساعة، كانت تسطع عبر فروع وأوراق أشجار الزان، وشعاعها يومض على محيّاه، ذلك الذي نظرتُ إليه حينها للمرة الأخيرة. أرى الآن الفُلك الإلهي، بعد أن منح السحب بهاءً نادرًا، يغرق وراء الأفق، يختفي من عالمٍ لم يعد فيه ذلك الذي أبحث عنه موجودًا، ويقترب من عالم آخر يعيش فيه. لماذا أبكي بهذه المرارة؟ لماذا يناضل قلبي بسعي لا طائل منه لطرح الألم المرير الذي يغطيه كما تغطّي المياه البحر. سأرحل عن هذا العالم الذي لم يعد هو فيه وقريبًا سأقابله في عالمٍ آخر.

وداعًا، وودفيل، قريبًا ستصبح الأرض خضراء على قبري، وزهور البنفسج ستزهر عليه. هناك تقبع آمالي، وهنا، في هذا العالم، تكمن آمالك، علّها تصبح حقيقةً.

تمّت

t.me/qurssan

t.me/qurssan

ماتيلدا

رواية

ورغم أنني أبقيتُ على سبب أحزاني سرًّا، قادني إلى صبّ شكواي المريرة وإلى إلباس محنتي كلمات الغضب والحماسة. وبكل الطاقة التي يمتلئ بها حزني البائس، أخبرته بسقوطي من النعيم إلى المأساة في لحظة واحدة، كيف أنني لا أجد أي بهجة، أي أمل، أن الموت مهما كان مريرًا هو الخاتمة التي أتوق إليها لكل آلامي، الموت، الهيكل العظمي، كان جميلًا كالحب. لا أعرف السبب لكنني وجدتُ من

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

مركز المحروسة
للنشر والخدمات العلمية والمعلومات

t.me/qurssan